

المستخلص

جاء هذا البحث بعنوان: (منهج التفسير الموضوعي في أبحاث التفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم)، وتتجلى أهمية التفسير الموضوعي في اتجاه التفسير والإعجاز العلمي للقرآن في كون هذه الطريقة تعطي تصوراً كلياً متكاملًا للقضايا الكونية في القرآن الكريم كله، ونظراً لعدم وضوح الكتابة بأسلوب التفسير الموضوعي في أبحاث الإعجاز العلمي؛ رأيت ضرورة وضع منهج منضبط لمن يشتغل بهذا الاتجاه ويعمل به ليبتعد عن الحشو والزيادات التي يضيع القارئ بها، وكما هدف البحث إلى وضع القواعد العلمية الخاصة باتجاه التفسير العلمي والإعجاز العلمي في القرآن بطريقة التفسير الموضوعي، وضع خطة علمية منهجية لأبحاث التفسير العلمي والإعجاز العلمي يكون منطلقها آيات القرآن الكريم وليس العلوم الكونية المراد إسقاطها على القرآن الكريم، وتناول موضوعات، مناهج الكاتبين عرض ونقد، منهج التفسير الموضوعي في قضايا التفسير والإعجاز العلمي، نموذج تطبيقي للمنهج المرسوم في المبحث الثاني، وتوصلت فيه إلى النتائج الآتية، مراحل التفسير الموضوعي في التفسير والإعجاز العلمي هي: اختيار الموضوع، وضع خطة منهجية للبحث، الاستقراء والجمع، ترتيب الآيات وتصنيفها، البحث التفسيري: وفيه يجب أن يراعى المسائل الآتية، الاهتمام بأسباب النزول إن وجد، والاهتمام باللغة العربية وعلومها، والاهتمام بالسياق القرآني، والاهتمام بالمنقول، والحذر من الإسرائيليات، منهج التعامل مع العلوم الكونية: يجوز في التفسير العلمي الاستشهاد بالنظريات العلمية ذات البرهان العلمي؛ وبالحقائق من باب أولى، أما في الإعجاز العلمي فلا يجوز الاستشهاد إلا بالحقائق العلمية الثابتة، وأما الفرضيات والتصورات فلا يجوز الاستشهاد بها مطلقاً، بل ينبغي الاقتصار على الدلالة اللغوية فقط لأن الحجة فيها، التفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم ذو طابع تخصصي جماعي من علماء التفسير والعلوم الكونية، وخلصت إلى التوصيات التالية، إنشاء مركز أبحاث متكامل من لجان علمية متخصصة في العلوم الشرعية والعلوم الكونية المختلفة لدراسة موضوعات القرآن الكريم في القضايا الكونية وفق منهج التفسير الموضوعي، تقرير مادة ضوابط التفسير والإعجاز العلمي في الكليات والمعاهد الشرعية.

١ - د. مرهف عبد الجبار سقا أستاذ مساعد في التفسير وعلوم القرآن قسم الدراسات الإسلامية - كلية التربية - جامعة المجمعة.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

أهمية الموضوع:

لقد أولت الأمة لهذا الكتاب الرباني «القرآن العظيم» عناية فائقة وبينته بأنواع من التبيان العلمي، فكان منها اللغوي، وكان منها الفقهي، وكان منها الكلامي، وكان منها الأثري... الخ، وما هي اليوم تتجه جهود الأمة إلى بيان لم يكن المتقدمون في غفلة عنه، ولكن حتمته ظروف الأمة وأوضاعها المضطربة علمياً وثقافياً وسياسياً ألا وهو التفسير العلمي والإعجاز العلمي، إذ صار هذا الاتجاه من التفسير يشغل حيزاً واسعاً من الثقافة الإسلامية واهتمام الناس على كافة المستويات.

وقد انتهج العلماء لعرض هذا الاتجاه من التفسير عدة طرق، ومن أهمها وأوسعها طريقة التفسير الموضوعي، وتتجلى أهمية التفسير الموضوعي في اتجاه التفسير والإعجاز العلمي للقرآن في كون هذه الطريقة تعطي تصوراً كلياً متكاملًا للقضايا الكونية في القرآن الكريم كله، وتربط بين الآيات وتوضح المجملات وتحل المشكلات وتوضح المبهمات إما من باب تفسير آية بآية، أو من باب تكميل آية بآية أو من باب تقييد آية بآية.. الخ، فيخرج القارئ بتصوير قرآني متكامل حول القضية الكونية المبحوثة.

سبب اختيار البحث:

ولأهمية هذا الاتجاه من التفسير وعلوم القرآن واهتمام العلماء به، وكثرة الكاتبين فيه وغالب مؤلفاتهم تقترب من التفسير الموضوعي، وعدم وضوح منهج في هذه الكتابات؛ رأيت ضرورة وضع منهج منضبط لمن يشتغل بهذا الاتجاه ويعمل به ليباعد عن الحشو والزيادات التي يضيع القارئ بها، ويركز الباحث في هذا الاتجاه على علوم الآية القرآنية ويدور حولها.

الأبحاث السابقة:

إذن: يتركز موضوع البحث حول الضوابط الأساسية التي ينبغي على المفسر اتباعها في التفسير العلمي للقرآن بطريقة التفسير الموضوعي وتوضيح منهج التعامل مع مسائل خاصة بالتفسير والإعجاز العلمي في القرآن، ثم تقديم نموذج تطبيقي لمنهج التفسير الموضوعي.

ونحن لو نظرنا في المكتبة القرآنية فإننا نجد مؤلفات عديدة في وضع منهج التفسير الموضوعي في القرآن الكريم عموماً، ولعل من أشهرها كتاب (المدخل إلى التفسير الموضوعي) للدكتور عبد الستار فتح الله السعيد، وكتاب (التفسير الموضوعي) للدكتور

مصطفى مسلم وغيرهما العديد، أما فيما يخص الكتابة في اتجاه التفسير العلمي والإعجاز العلمي في القرآن الكريم الكتابة في ضوابط أبحاث التفسير الموضوعي فيه على وجه الخصوص فإنني لا أعلم من سبقني في ذلك.

وقد يقول قائل: إن هذا من علوم القرآن الكريم ويدخل في عموم التفسير الموضوعي، فالجواب: هذا صحيح في العموم ولكن عند التدقيق ستجد أن الكتابة في التفسير العلمي والإعجاز العلمي في القرآن الكريم له خصوصية في منهجية الكتابة وطرح المواضيع، وقد عالجت ذلك في ثنايا البحث، وسأترك الحكم للقارئ يستبين الحقيقة.

أهداف البحث:

- رسم منهج علمي منضبط لتفسير القرآن الكريم تعظيماً لكتاب الله.
- وضع القواعد العلمية الخاصة باتجاه التفسير العلمي والإعجاز العلمي في القرآن بطريقة التفسير الموضوعي.
- وضع خطة علمية منهجية لأبحاث التفسير العلمي والإعجاز العلمي يكون منطلقها آيات القرآن الكريم وليس العلوم الكونية المراد إسقاطها على القرآن الكريم.

مصطلحات البحث:

يتألف البحث من المصطلحات الآتي:

منهج: في اللغة: نَهَجَ الطريق إذا وضح، وتقول: المنهاج، أي: الطريق الواضح²، ومرادنا هنا: الطريقة الواضحة لكتابة أبحاث التفسير والإعجاز العلمي في القرآن، وإن وضوح هذا الطريق يكون ببيان قواعد وضوابط العمل العلمي لهذه الأبحاث.

وأما التفسير الموضوعي: فهو الفن المدون الذي يعنى ببيان القضايا القرآنية، أي: هو ”علم يبحث في قضايا القرآن الكريم المتحدة معنى أو غاية، وجمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها على هيئة مخصوصة، بشروط مخصوصة، لبيان معناها واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع“³

وأما التفسير العلمي: فهو بيان معاني القرآن الكريم باستنباط مختلف العلوم الكونية والنفسية العقلية، أو بتوظيف العلوم التطبيقية والبحثية والمعارف التجريبية الصحيحة بقدر الطاقة البشرية وفقاً لقواعد الشرعية المقررة⁴.

أما الإعجاز العلمي فيا لقرآن فهو: سبق القرآن الكريم في الدلالة إلى حقائق في شتى مناحي العلم قبل اكتشاف العلم له أو استقراره على اعتمادها⁵.

وبذلك نعلم مرادنا بالعنوان وهو: الطريقة الواضحة (القواعد والضوابط العلمية) للأبحاث المتعلقة بدراسة القضايا الكونية على الخصوص التي تحدث عنها القرآن الكريم وبيان معانيها والعلوم التي دلت عليها من خلال جمع آياتها المتفرقة ودراستها على هيئة مخصوصة وفق القواعد والضوابط المبينة فيه.

الكلمات الدلالية:

التفسير العلمي، الإعجاز العلمي، منهج، التفسير الموضوعي، أبحاث الإعجاز العلمي، القرآن الكريم.

خطة البحث:

وقد جعلت البحث بالإضافة إلى هذه المقدمة - التي نحن بصدها - في ثلاثة مباحث،

٢ - انظر: الأزهرى، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة للأزهري مادة نهج ٦ / ٤١، تحقيق: محمد عوض مرعب، طبع دار إحياء التراث العربي - بيروت، الأولى، ٢٠٠١م.

٣ - السعيد، د. عبد الستار فتح الله المدخل إلى التفسير الموضوعي ص ٢٠، ط: دار التوزيع والنشر الإسلامية، الثانية ١٤١١ هـ.

٤ - سقا د. مرهف عبد الجبار، منهج التفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم ضوابط وتطبيقات، ١ / ٦٢، ط: دار محمد الأمين دمشق، الأولى ٢٠١٠م.

٥ - المصدر السابق ١ / ٩٣.

ثم خاتمة .

المبحث الأول: مناهج الكاتبين عرض ونقد.

المبحث الثاني: منهج التفسير الموضوعي في قضايا التفسير والإعجاز العلمي.

المبحث الثالث: تطبيق منهج التفسير الموضوعي في التفسير والإعجاز العلمي.

الخاتمة: أذكر فيها أهم النتائج والتوصيات.

هذا: وأسأل الله تعالى التوفيق للحق في القول والعمل، وأن يلهمنا رشدنا، ويغفر لنا أخطاءنا، كما أسأل الله تعالى أن يكتب النفع بهذا البحث وأن تتلقاه الأمة بالقبول والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول

مناهج الكاتبين عرض ونقد

لقد نشطت حركة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم في أوائل القرن الرابع عشر الهجري عندما انتفض بعض علماء الأمة يردون دعاوى تعارض الدين مع العلم ولزوم ترك القرآن واعتبار الحضارة الوافدة من الغرب هي الحل الذي سينقذ المسلمين من وهدة التخلف لينقلها إلى منارة التقدم، فألف السيد محمود شكري الآلوسي (١٢٧٣ - ١٣٤١ هـ) - حفيد المفسر أبي الثناء - كتابه: (ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان) مسانداً فيه قول فيثاغورث بأن حركة الأرض تابعة للشمس، وأن الأرض كباقي الكواكب السيارة معلقة بفعل الجاذبية، ورأى أن هذا القول لا يتعارض مع القرآن والسنة وإلا لما التفت إليه^٦، فتناول الآيات المتعلقة بذلك في كل سورة سورة.

ثم ألف الشيخ محمد بخيت المطيعي (١٨٥٤ - ١٩٣٥ م)، (تنبيه العقول الإنسانية لما في آيات القرآن من العلوم الكونية العمرانية)^٧ الذي ألفه في الرد على دعوى مستشرق يطعن في القرآن، فجعل الشيخ المطيعي رحمه الله كتابه على موضوعات قرآنية، فيذكر الآيات القرآنية ويفسرها تفسيراً بارعاً، ثم يدعم تفسيره بالمعارف المختلفة ويشرح القضية الموضوعية ويذكر الخلاف ويفند الآراء ويدحض آراء المستشرقين، فتكلم بهذه الطريقة عن خلق الإنسان، وعن السموات والأرض وتعدد الأقمار والشموس.. الخ.

وبمثل ذلك قام الشيخ محمد وفا الأميري في كتابه (الإشارات العلمية في القرآن الكريم)^٨، وقد تميزت مؤلفات العلامة الآلوسي والشيخ المطيعي والشيخ الأميري بحسن الصياغة وقوة التفسير والاستدلال، بل ويتميز كتاب العلامة الآلوسي بترتيبه المعتبر حسب السور، إلا أن كتاب الشيخ الأميري أسهب مؤلفه بالمعلومات الكونية حتى طغت على تفسير الآيات بل غيبها، مع تكرار لبعضها في مواطن مختلفة.

ثم توالى المؤلفات في هذا الاتجاه، وكلما استجد أمر في قضايا الكون من علوم تجريبية أو تطبيقية أو فلكية ظهر ما يقابلها من الأبحاث التي تريد إثبات وجودها وربطها بالقرآن الكريم.

٦ - انظر: الآلوسي، محمود شكري، ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان ص ٢، ٤ تحقيق: زهير شاويش، ط المكتب الإسلامي، أولى ١٩٦٠.

٧ - تنبيه العقول الإنسانية لما في آيات القرآن من العلوم الكونية والعمرانية محمد بخيت المطيعي، تقديم: عبد الرحمن عيسى ط مكتبة أحمد ربيع، حلب ١٩٦٩ م.

٨ - طباعة دار الرضوان حلب الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ، وقد طبع الكتاب أول مرة عام ١٢٨٩ هـ، والأستاذ الأميري من أعيان القرن الرابع عشر الهجري ولد في حلب ودرس في الأزهر.

ثم كان القرن الخامس عشر الهجري فكثر المؤلفات في هذا الاتجاه وتنوعت، وبرزت معالم التفسير الموضوعي فيها أكثر من حيث تناول قضية بعينها وبحثها في القرآن الكريم، فألف الدكتور زغلول النجار العديد من المؤلفات المتعلقة بذلك ك: (السماء في القرآن الكريم)^٩، و: (المفهوم العلمي لجبال في القرآن الكريم)^{١٠}، و: (النبات في القرآن الكريم)^{١١} في ثلاثة أجزاء، كما ألف الدكتور كارم السيد غنيم والدكتور عبد العظيم محمد الجمال كتاب: (الجراد في القرآن الكريم والعلم الحديث)^{١٢}، ومما صدر أيضاً: (العلوم الفلكية في القرآن الكريم) للدكتور سيد وقار أحمد حسيني^{١٣}، وكتاب (من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في ضوء الدراسات الجغرافية الفلكية والطبيعية) للدكتور حسن أبو العينين^{١٤} وجعله في جزئين، وكتاب (الركام المزني والظواهر الجوية في القرآن الكريم) لصلاح الدين عارف جنيد^{١٥}.

وبالنظر في هذه المؤلفات جميعها نجد أنها تشترك بالملاحظات الآتية:

- إن الكاتبين لهذه المؤلفات ليسوا من ذوي التخصصات العلمية الشرعية، وإنما من التخصصات العلمية الكونية المختلفة، ولذلك فقد كثرت في كتاباتهم الأخطاء المنهجية العلمية الآتية.
- الإطناب في سرد المعلومات الكونية المتعلقة بقضية البحث، حتى تصل أحياناً إلى ذكر جزئيات لا علاقة لها بدلالة الآيات ولا تتصل بها في الموضوع العام^{١٦}.
- الاختصار المخل في تفسير الآيات، وقد يكون التفسير عند بعضهم فيما لا علاقة له بالبحث فيدخل الإسرائيليات، وقد يستشهد بالتوراة والإنجيل كما في كتاب الجراد في القرآن الكريم والعلم الحديث^{١٧}، بل إنك تجد في كتاب الركام المزني خروجاً عن اتفاق المفسرين وشدوذا في الاستدلال^{١٨}.

٩ - طباعة: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع. طبعة ثانية، ٢٠٠٥.

١٠ - طباعة مكتبة الشروق الدولية، مصر،

١١ - طباعة: مكتبة الشروق الدولية، مصر، الثانية ٢٠٠٥.

١٢ - طباعة دار الصحوة، مصر، الأولى ١٩٨٨م.

١٣ - طباعة دار طلاس، سوريا، الثانية ١٩٩٦.

١٤ - طباعة: مكتبة العبيكان، السعودية، أولى ١٩٩٦.

١٥ - طباعة: مطبعة الزرعي دمشق، أولى ١٩٩٩م.

١٦ - انظر مثلاً: النبات في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار ١٣٥/٥.

١٧ - انظر الصفحات من ٢١، إلى ٣٣ من كتاب الجراد في القرآن والعلم الحديث، فقد أتى المؤلفان بنصوص من التوراة على تعذيب بني إسرائيل بالجراد.

١٨ - انظر مثلاً: الصفحات ٤٠، ٤٢، ٤٧، من كتاب: الركام المزني والظواهر الجوية في القرآن الكريم.

- لا توجد خطة واضحة لهذه المؤلفات يمكن اعتبارها، فبعضهم يسرد المعلومات ويدخل فيها الآيات على أنها بيان لها، وآخرون يذكرون الآيات أو الآية المتعلقة بالقضية الكونية المبحوثة ثم يفسرونها ثم يذكرون المعلومات المتعلقة بها على الوجه المتقدم من الإطناب. ومنهم من يذكر الآية ثم يسرد ما يتعلق بسورة الآية من موضوعات ومكان النزول وما تحويه من آيات كونية.. الخ، ثم يفسر الآية التي هي محل البحث، ثم يسرد المعلومات الكونية ذات العلاقة^{١٩}، بل قد تجد بعضهم يذكر الآية ثم يدخل في موضوعه مباشرة دون بيانها أو ذكر تفسيرها أو وجه ارتباطها بالقضية العلمية كما في كتاب الدكتور أبو العينين، وكتاب الدكتور سيد وقار.
 - لا يوجد في أغلب هذه الكتب بيان وجه دلالة الآية على المعلومة التي يراد الاستدلال عليها، ولا تجد أيضا وجه الإعجاز العلمي في الآية.
 - بعضهم نظر في مقدمة كتابه لقواعد وضوابط ينبغي التزامها في التفسير والإعجاز العلمي للقرآن، ولكن بالمقارنة بين النظرية والتطبيق تجد مفارقات مختلفة، وأغلب هذه المخالفات في اللغة وفي معاني الحروف وفي أنواع الدلالات، كما في كتاب السماء في القرآن الكريم مثلاً، إذ خالف الكاتب اللغة عند الاستدلال على الثقوب السوداء في قوله تعالى: (فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُوسِ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ) (التكوير: ١٥، ١٦٢٠).
 - إخراج الآيات عن سياقها العام والخاص وكأنها نزلت دليلاً على القضية المراد البحث عنها فقط^{٢١}.
- هذه أهم الملاحظات العامة التي لا يخلو منها أو من أحدها بحث من أبحاث التفسير والإعجاز العلمي في القرآن يمضي على طريقة التفسير الموضوعي، ولعل السبب الجامع لوجود هذه الملاحظات هو عد التخصص الشرعي للمؤلفين مما جعل اهتمامهم ينصب على الموضوع دون مراعاة المنهجية العلمية، ولذلك فإن أغلب هذه الملاحظات لا تجدها في الكتب التي ألفها المتخصصون بالعلوم الشرعية وخاصة التفسير وعلوم القرآن.

١٩ - انظر كتاب النبات في القرآن الكريم، وقارنه بكتاب المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم، وكلاهما للدكتور زغلول النجار، وستجد خلافاً بينهما في طريقة البحث، ففي كتاب «المفهوم العلمي للجبال» يفسر الآيات دون التعرض للكلام على سورها كما كان يفعل في كتاب «النبات في القرآن» أو كتاب «السماء في القرآن».

٢٠ - انظر: السماء في القرآن الكريم ص ٢١٣، إلى ٢١٦، ثم انظر ص ٢٢٧، فقد خالف اللغة عند الاستدلال على الثقوب السوداء.

٢١ - انظر على سبيل المثال، بحث: دلالات السياق القرآنية على وجود الثقوب السوداء، سعيد حمود اليامي، مجلة الإعجاز العلمي ص ٢٣، العدد ٢٣، رجب ١٤٢٣ هـ. إذ استدلت بتكوير الشمس واندثار النجوم - وهي من أهوال يوم القيامة - على ظاهرة الثقوب السوداء.

ثم ظهرت محاولة تصنيف الآيات ذات الدلالة الكونية بمجموعات موضوعية، وهي محاولة تستحق تسليط الضوء عليها، لجدتها وأهميتها في التفسير الموضوعي، فقد قام الطبيب الدكتور محمد جميل الحبال بالتعاون مع الدكتور مقداد مرعي الجواري، في كتاب (العلوم في القرآن الكريم)^{٢٢} بجمع الآيات الكونية في القرآن الكريم وتصنيفها على مجموعات علمية، وشرح المؤلفان طريقة التصنيف لهذه الآيات - كما يقولان - (حسب نوع الإشارة العلمية)، وأنواع الإشارة بتقسيمهم أربعة، ونذكرها هنا باختصار^{٢٣}:

أحدها - كما يقولان - «الإشارات العلمية الواضحة أو المباشرة (التخصصية)» ومثلاً لها بآية النحل تحت عنوان العسل غذاء ودواء^{٢٤}.

الثانية: «الإشارات العلمية العامة (الإجمالية) كأضرار الزنا.

الثالثة: «الإشارات العلمية غير المباشرة (التلميحية)»، كالإشارة إلى ضيق الصدر في أعالي الجو

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ الأنعام: ١٢٥

الرابعة: الإشارات العلمية المستنبطة، كمدة أقل الحمل، وحركة الأرض.

يقول المؤلفان: (في هذه المرحلة تم جمع وتصنيف الآيات التي تحوي الإشارات الكونية حسب النقاط سابقة الذكر على أبواب المعرفة والعلوم المختلفة وذلك حسب فهمنا ومعرفتنا واعتماداً على المصادر المذكورة.. وقد تكون هناك آيات أخرى ذات دلالات علمية، ولكننا لم ندخلها في الدراسة لقصور علمنا وفهمنا بها، وقد يتوصل إليها آخرون في الوقت الحاضر أو في المستقبل... وقد يكون هناك موضوعات علمية أخرى لم ندرجها في البحث وقد يتوصل إليها المتخصصون بها..)^{٢٥}.

وعندما تتعدد العلوم المشار إليها في الآية الواحدة فيتكرر ذكر الآية عند كل علم مصنف لديهم. ووضع المؤلفان في حسابانها الإطار الإيماني الذي وردت فيه الآيات المصنفة، فقالا: (تمت دراسة الآيات المشار إليها من خلال المعاني الإيمانية في كل آية، وتم تصنيفها باعتبار وجود أحد أركان الإيمان الستة..)^{٢٦}، ولذلك فعند ذكر الآية فإنها يضعان خطأ تحت الدلالة

٢٢ - طباعة دار النفائس، بيروت أولى ١٩٩٨ م.

٢٣ - العلوم في القرآن ص ٢٣ فما بعد.

٢٤ - المصدر السابق ص ٢٤.

٢٥ - المصدر السابق ص ٢٩.

٢٦ - المصدر السابق ص ٣١.

الإيمانية، وقوسان على المقطع الذي فيه الدلالة العلمية ومثال ذلك: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زُنُوجَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (النحل: ٨٨) وهكذا.

ولذلك فقد وضعنا كشافين في كتابهما أحدهما (كشاف الإشارات العلمية)^{٢٧}، وكشافاً لـ (الإشارات الإيمانية)^{٢٨}، أعادا تصنيف الآيات في هذا الكشاف الأخير حسب أركان الإيمان. وقد أقر المؤلفان بأن مثل هذا المشروع يحتاج لجهود متضافرة وأن دراستهم هذه (محاولة أولية في هذا المجال، قد تفتح آفاقاً كثيرة للآخرين في المستقبل)^{٢٩}.

ثم طبق هذه الطريقة الدكتور محمد جميل الحبال بالاشتراك مع الدكتور وميض العمري في كتابيهما (الطب في القرآن)^{٣٠}، إذ اشتمل الكتاب على نحو ٣٥٠ آية مصنفة لـ ١٧ موضوعاً طبياً، ثم ربط هذه الإشارات بأركان الإيمان الستة، ثم تبعهما المهندس أحمد عامر الدليمي في كتابه (المياه في القرآن، منهاج لتفسير الإشارات العلمية في الآيات القرآنية)^{٣١}، فقد حوى كتابه نحو ٢٦٥ آية، مصنفة إلى ١٣ علماً متخصصاً في مجال المياه، وفيها نحو ٥٢٨ إشارة علمية - كما يقول المؤلف^{٣٢}، وقد ربط المؤلف هذه الآيات بأركان الإيمان الستة باعتبار أن الهدف من هذه الآيات وذكر العلوم التي فيها إنما لإقامة الحجة على الناس^{٣٣}.

وقد أحسن الدليمي في عرض موضوعات كتابه والاستفادة من الآيات القرآنية وطريقة عرضها، إلا أنه يؤخذ على أصحاب هذا المنهج الآتي:

- لم يبينوا بشكل واضح المنهج المتبع حال كون الآية ذات دلالة مفتوحة تستوعب كل العلوم، مع أنهم تعرضوا لذكر ذلك^{٣٤}، كما في قوله تعالى: () وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (الفرقان: ٢).

- متابعة المؤلفين لمن سبقهم في الاستدلالات على العلوم دون تمحيص، كمتابعتهم

٢٧ - المصدر السابق ص ٦٧ إلى ص ٨٤.

٢٨ - المصدر السابق من ص ٨٥ إلى ص ٩٧.

٢٩ - المصدر السابق ص ٢٩.

٣٠ - طباعة دار النفائس، بيروت، الأولى ١٩٩٧م.

٣١ - طباعة دار النفائس، بيروت أولى ٢٠٠٢م، والمؤلف يحمل ماجستير في علم المياه.

٣٢ - المصدر السابق ص ١٢.

٣٣ - المصدر السابق ص ١٥.

٣٤ - انظر: العلوم في القرآن ص ٣١.

في الاستدلال بقوله تعالى ﴿يَذُرُّ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ السجدة: ٥

على حساب السرعة الكونية «سرعة الضوء»^{٣٥}.

- عدم استخدام المصطلحات العلمية في بيان نوع الدلالة، فاستخدامهم لكلمة «الإشارة العلمية» و«الإشارة التلميحية»، استخدام لمصطلح دارج غير سليم، والإشارة هي إحدى أنواع الدلالة القرآنية المعبر عنها بإشارة النص، وهي الدلالة المستنبطة لغير ما سيقت له الآية، وهذا المعنى غير مراد بهذا الاستخدام، فكان الأحسن استخدام مفردة الدلالة، ولعل عذرهم في ذلك كونهم غير مختصين بالعلوم الشرعية فعبروا بما عرفوا.
- اعتبارهم السياق الإيماني فقط في تفسير الآيات، دون اعتبار سياق نظم الآية مناسبتها لما قبلها الذي قد يساعد كثيراً على بيان الآية وتوسيع الدلالة أو تقييدها.
- ومع هذه الملاحظات إلا أن منهجهم قمن بالاعتبار والنظر والمتابعة والله أعلم.

المبحث الثاني

منهج التفسير الموضوعي في قضايا التفسير والإعجاز العلمي في القرآن

إن منهج التفسير الموضوعي في أبحاث التفسير والإعجاز العلمي على الخصوص لا يخرج في مبادئه العامة عن منهج وخطوات التفسير الموضوعي في الإطار العام، ولكن نظراً لحساسية هذا النوع من الأبحاث فإن ثمة قضايا خاصة بهذا اللون من التفسير لا بد من بيانها في هذه الخطوات العامة، إضافة إلى قضايا منهجية خاصة بأبحاث التفسير والإعجاز العلمي، مثل: منهج التعامل مع المعلومات الكونية في التفسير الموضوعي.

إن دراسة قضية ما من القضايا العلمية الكونية في القرآن الكريم؛ تتطلب من الباحث الدراية الجيدة فيما قيل عن هذه القضية في العلوم الكونية أثناء عملية التفسير ومحاولة استثمار الدلالات اللغوية في توظيف العلوم الكونية لتجليتها وتوسيع معانيها، وحتى يسلم للباحث ذلك، فلا بد له من اتباع المراحل الآتية:

المرحلة الأولى: اختيار الموضوع: إن الأصل في الإعجاز العلمي في القرآن الكريم هو معرفة هدي القرآن وسبقه في بيان القضية الكونية المدروسة، وبيان التصور الذي رسمه القرآن الكريم لهذه القضية، ولئن كان الواقع العلمي له أثر في اختيار الموضوع؛ لكن لا بد أن يبقى القرآن هو الأصل الذي ينبغي الاعتماد عليه في تقرير التصور الكوني لهذه القضية العلمية المبحوث فيها استدلالاً أو استنباطاً، ويبقى دور الواقع العلمي في بيان القضية العلمية في القرآن الكريم في إطار ما يدل عليه النص القرآني.

وهنا أمران مهمان ينبغي ذكرهما:

أحدهما: ينبغي على الباحث أن يختار موضوعاً له وجود في القرآن - ولو استدلالاً - بغير تكلف وتعسف، فلا يجوز للباحث أن يتكلف (فيحاول أن يدخل في القرآن كل شيء مستحدث في العلوم والصناعات، بدعوى شمول القرآن لكل شيء من هذه الوسائل، كما كتب بعضهم بحثاً بعنوان: الأطباق الطائفة في ضوء القرآن، وكتب آخر: القنبلة الذرية في القرآن الكريم)^{٣٦}.

الأمر الثاني: هو أن يكون الباحث على قناعة ودراية بالبحث الذي يختاره، بأن تكون الفكرة ناضجة وواضحة في ذهنه، وقد تهيأ لها وأخذ الأسباب اللازمة علمياً وعقلياً ونفسياً للكتابة فيها.

وفي هذه المرحلة يضع الباحث عنواناً أولياً لبحثه يبين مضمون البحث ومدلوله، ثم إن شاء يعدل في العنوان أو يغير فيه حسب ما يراه مناسباً، ولكن ما يشترط في اختيار العنوان

٣٦ - انظر: فتح الله السعيد، د. عبد الستار، المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص ٥٩، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، الثانية، ١٩٩١م.

هو أن يكون معبراً عن المضمون بشكل واضح وأن يراعي فيه المصطلحات الشرعية^{٣٧}. وقد جعل بعض الفضلاء ممن كتب في منهج التفسير الموضوعي اختيار العنوان الخطوة الأولى من خطوات التفسير الموضوعي، وقد يلمحون لاختيار الموضوع عرضاً^{٣٨}، مع أن اختيار الموضوع مقدم من اختيار العنوان وأكثر أهمية.

المرحلة الثانية: وضع خطة البحث: والمراد بوضع خطة البحث: وضع العناوين الأساسية للقضايا والمواضيع الفرعية والجزئية التي سيتعرض لها بحث التفسير الموضوعي عندما يكون بحثه مطولاً مفرعاً.

وهذه المرحلة مبنية على سلامة المرحلة الأولى في اختيار الموضوع، لأن العناية بخطة البحث في بداية الأمر يدل على التصور الواضح للقضية المبحوثة في القرآن الكريم، ويحدد الأولويات التي ينبغي أن يصرف الجهد لها. ويوفر الوقت الكثير للباحث كي لا يتشتت في فروعيات متعددة ومتشعبة، يقول الدكتور مصطفى مسلم: (لا بد للباحث من الالتزام بمنهج البحث العلمي عندما يضع مخطط البحث للموضوع... فإن كان الموضوع متشعب المباحث والمجالات؛ لا بد عندئذ من وضع تمهيد يبين الباحث فيه منهجه في تناول الموضوع، (يقسمه إلى أبواب وفصول ومباحث..)، أما إذا كان الموضوع محدد المعالم والآفاق واضح المجالات، قليل العناصر؛ فلا بأس من بحثه عندئذ على شكل مقالة علمية تتكون من مقدمة وصلب الموضوع وخاتمة... ويدون خلاصة ما توصل إليه في الخاتمة بشكل موجز)^{٣٩}.

المرحلة الثالثة: الاستقراء والجمع: والمراد بالاستقراء أن يتتبع الباحث الآيات القرآنية المتعلقة بالقضية الكونية المراد بحثها في القرآن الكريم، ويكتبها على بطاقة خاصة، ثم يجمع هذه الآيات مع بعضها لينتقل إلى مرحلة الترتيب والتصنيف.

والاستقراء في أبحاث التفسير الموضوعي على نوعين: أحدهما: تام، والمراد به استقراء كامل القرآن استقراءً دقيقاً يتم من خلاله جمع كل ما يتعلق بالقضية المبحوثة نصاً أو استدلالاً. كموضوع حركة الكون وكروية الأرض، وكالحديث عن النجوم في القرآن الكريم.. ونحو ذلك^{٤٠}.

٣٧ - ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، د. عبد الستار ص ٥٩.

٣٨ - انظر مثلاً: د. أحمد السيد الكومي، د. محمد أحمد يوسف القاسم، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ص ٢٣ ط مصر ١٤٠٢هـ، د. مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي ص ٢٧ ط دار القلم دمشق الأولى ١٤٢٠هـ.

٣٩ - مباحث في التفسير الموضوعي ص ٢٨، وما بين (اختصار لكلام فضيلته بتصرف مني).

٤٠ - وهذا النوع في الاستقراء يستخدم في نوع التفسير الموضوعي «البيسط» كما عبر عنه الدكتور عبد الستار في المدخل، ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي ص ٦٢.

والاستقراء الآخر: غير تام، ويراد به التتبع للآيات المتعلقة بالقضية المبحوثة بشكل مباشر وبدلالة ظاهرة، أو بتتبع الآيات التي تجمع أطراف الموضوع بشكل جامع لفظاً واستدلالاتاً، كمرحلة خلق الجنين، فالآيات التي تنص على مراحل الأساسية قد نص القرآن عليها ولكن ثمة آيات تدخل في هذا الموضوع بشكل غير مباشر كخلق سمعه وبصره مثلاً، ففي الاستقراء التام ينبغي أن تدخل في الحسبان، وأما في الاستقراء غير التام فلا تدخل.

إن جمع الآيات لم يعد يعتمد كثيراً على المعاجم المفهرسة، أو كتب المفردات والوجوه والنظائر وغير ذلك، إذ بتوسع استعمال الحاسوب وتطور البرامج الحاسوبية التي تعتنى بالقرآن وعلومه صار من السهل جداً جمع الآيات القرآنية من خلال البحث عن المفردة، بل هناك برامج رتبت آيات القرآن حسب المواضيع كبرنامج صخر (تفسير القرآن الكريم) مثلاً، والذي أراه أن الباحث الجاد والمخلص في بحثه لا يكتفي بهذه الطريقة في البحث، ولكن لا بد له من أن يستوعب قراءة القرآن بتأني من أوله إلى آخره ليتناول الآيات المتعلقة بقضيته الكونية حسب سياقها، نعم قد تكون بعض الأبحاث لا تحتاج هذه الطريقة كمن يريد الكتابة عن دلالة السماء في القرآن وأن يتناول كل الآيات التي فيها «سما»، فيسعه مثل هذه البرامج الحاسوبية أو إصدارات القرآن الكريم الإلكترونية كمصحف المدينة المنورة للنشر الإلكتروني مثلاً، ولكن هذا لن يغنيه في العودة إلى القرآن ليقراً الآية في سياقها ونظمها.

ولذلك على من أراد جمع الآيات بأي طريقة كانت: أن يستعين بمصحف على هامشه ببيان المفردات، أو تفسيراً مختصراً، وعندما يستخرج الآية على بطاقتها الخاصة يسجل معها تفسيراً مختصراً يدل على موضوعها وما تحويه من عناوين محتملة (مواضيع فرعية تدخل في القضية الكونية المبحوثة).

وهذه الطريقة في الاستقراء تساعد الباحث على التصنيف السليم للآيات في الموضوعات المتشعبة والأبحاث المطولة، وتكون لديه ملكة تفسيرية تقوي استدلاله أثناء صياغة البحث الأخيرة.

المرحلة الرابعة: ترتيب الآيات وتصنيفها:

بعد أن يجمع الباحث الآيات المتعلقة بالقضية الكونية المدروسة، - وكان قد اطلع على معانيها جملة كما تقدم -؛ يقوم بترتيبها حسب اتفاقها وافتراقها في الموضوع، ولا يشترط أن يكون لكل موضوع جزئي عدد من الآيات فقد تكون آية واحدة موضوعاً جزئياً ضمن دراسة قضية كونية، كما أنه يمكن أن يتكرر الاستشهاد بآية واحدة عدة مرات لتداخلها مع آيات أخرى في موضوعات فرعية، فإن قوله تعالى - مثلاً - : (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ

٤١ - وهذا النوع من الاستقراء يستخدم في التفسير الموضوعي «الوسيط» كما عبر عنه د. عبد الستار في المدخل، ينظر المدخل إلى التفسير الموضوعي ص ٦٢.

أَهْرَزَتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيحٍ (الحج:٥) تتضمن عدة قضايا كونية، أبرزها: علاقة الماء باهتزاز التربة، وحركة التربة وأثرها في الزراعة، وهكذا...، وعلى كل فإن تصنيف وترتيب الآيات أمر اجتهادي يعود لمدى تمكن الباحث في أصول الاستنباط والبيان. وقد ذهب بعض الفضلاء إلى أن الترتيب ينبغي أن يكون حسب زمن النزول، أي ترتيباً تاريخياً بتمييز المكي والمدني^{٤٢}، (ومن العجيب أن نرى جل الذين صنفوا في التفسير الموضوعي وجعلوا هذا الترتيب التاريخي شرطاً للتفسير الموضوعي لم يلتزموا هذا الشرط في تفسيرهم، ولم يطبقوه بشموله إلا في مواضع الأحكام حيث يتعين أحياناً معرفة سبب النزول أو الوقوف على سببه...)^{٤٣}.

إننا لو دققنا النظر لا نجد لهذا التقييد في الترتيب والتصنيف فائدة مهمة في بعض موضوعات القرآن الكريم، وعلى الأقل فإن هذا الترتيب لا فائدة منه في أبحاث التفسير والإعجاز العلمي، لأن المراد من هذا النوع من التفسير معرفة هداية القرآن في الآفاق ومعرفة العوالم والأكوان، والعلم بالتصوير القرآني لحقيقة القضية الكونية، وبيان سبق القرآن في الدلالة على قضايا كونية متعددة، ولا يضيرنا في الترتيب والتصنيف معرفة ما إذا كانت الآية مكية أو مدنية، وإن ما يهمنا في تصنيف الآيات هو ملاحظة الموضوع الفرعي الذي يجمع آيات بعينها ضمن الموضوع الكلي، فالباحث مثلاً في الماء في القرآن الكريم، سيجد أن القرآن ذكر مصادر الماء، ووظائفه، وأحواله، ودورته... الخ، فعلى الباحث أن يقوم بجمع الآيات المتعلقة بكل معنى من هذه المعاني ضمن مجموعتها، (حيث يبدأ بتنظيم الآي وتصنيفها على نحو خاص يعين على الاستنباط منها والربط بينها والخروج منها برؤية جامعة لمختلف قضاياها الجزئية)^{٤٤}.

المرحلة الخامسة: البحث التفسيري للآيات: وهذه المرحلة هي لب الموضوع، وأهم مراحلها؛ بل حقيقته التي ينبغي على الباحث أن يولي لها اهتماماً كاملاً، فبعد أن يتم جمع الآيات القرآنية على موضوعات متناسبة يجمعها عنوان واحد ينبغي على الباحث أن يستوعب دراسة الآيات دراسة علمية وافية متأنية، بالرجوع إلى كتب التفسير التحليلي، والتعرف على أسباب نزولها إن وجدت، وإلى الألفاظ واستعمالاتها والروابط بين الألفاظ

٤٢ - انظر: شريف، محمد إبراهيم، اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، ص ٥٠٣، دار التراث، القاهرة، أولى ١٩٨٢م، المدخل إلى التفسير الموضوعي، د.عبد الستار ص ٦٣، مباحث في التفسير الموضوعي د. مصطفى ص ٢٧، التفسير الموضوعي للكومي والقاسم ص ٢٣.

٤٣ - رشواني، د. سامر عبد الرحمن، منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، دراسة نقدية، ص ١٥٢، ط: دار الملتقى حلب الأولى ٢٠٠٩م.

٤٤ - منهج التفسير الموضوعي د. رشواني ص ١٥٢.

في الجملة وبين الجملة في الآية وبين الآيات في المجموعة^{٤٥}، ويعلم ما يتعلق بدلالاتها من حيث العموم والخصوص والمطلق والمقيد، «وبذلك يكون التفسير التحليلي ضرورة للتفسير الموضوعي، فهما يتعاونان ولا يتعارضان، بل يتكاملان لخدمة النص القرآني»^{٤٦}. ويجب في هذه المرحلة الكلام على مسائل ضرورية يجب الأخذ بها في التفسير الموضوعي في اتجاه التفسير والإعجاز العلمي:

المسألة الأولى: الاهتمام بما يتعلق بالآية من أسباب النزول إن وجد:

ذلك لأن سبب النزول يزيل الإشكال عن معنى الآية، كما يقول ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢هـ): (طريق قوي في فهم معاني القرآن)، ويقول ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): (معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب)^{٤٧}، إذن معرفة سبب النزول طريق من طرق بيان الآية ومعرفة الجو العام الذي نزلت فيه الآية وما يحيط بها من ملاسات،

ولا يعني معرفة سبب النزول أن يذكره الباحث في التفسير الموضوعي، بل المراد هنا لزوم الاطلاع على معرفة الجو الذي نزلت به الآية لقصد المعنى مما يساعد في بيان القضية المبحوثة، ثم إن كان ذكر سبب النزول يفيد البحث التفسيري فيذكره وإلا فيكفي الإشارة إليه.

المسألة الثانية: الاهتمام باللغة وعلوم العربية:

إن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وإن التعرض لبيانه وفهمه لا بد أن يكون في ضوء لسان العرب وتصريفاتهم في الكلام، لأن العلوم التي يراد الاستدلال عليها في القرآن الكريم مكنونة في دلالات النص القرآني المنزل باللسان العربي، والاعتناء بهذا الجانب في التفسير الموضوعي ركن ركين وأصل أصيل لا يجوز تغافله ولا التساهل فيه، يقول الزركشي رحمه الله (ت ٧٦٤هـ): (وليس لغير العالم بحقائق اللغة ومفهوماتها تفسير شيء من الكتاب العزيز، ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركاً وهو يعلم أحد المعنيين)^{٤٨}.

فينبغي على الباحث بيان المفردات الغريبة في الآيات وذات العلاقة المباشرة في قضيته المبحوثة، ويذكرها في بحثه قبل المباشرة في تفسير الآيات، كما ينبغي أن يضع الباحث في التفسير الموضوعي الإعراب في حسابانه لأنه أحد طرق بيان القرآن، ولذلك يقول

٤٥ - انظر: مباحث في التفسير الموضوعي د. مصطفى ص ٢٧.

٤٦ - المدخل إلى التفسير الموضوعي د. عبد الستار ص ٦٤.

٤٧ - انظر قول ابن دقيق العيد وابن تيمية في الإتيان في علوم القرآن للسيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر ١ / ١٩٠، تحقيق مكتب الدراسات القرآنية، ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤٢٦ هـ.

٤٨ - الزركشي، محمد بن عبد الله بن، البرهان في علوم القرآن ٢ / ٢٠٦، تحقيق المرعشلي، ط دار المعرفة.

السيوطي(ت ٩١١هـ): (وعلى الناظر في كتاب الله، الكاشف عن أسرار النظر في الكلمة وصيغتها ومحلها ككونها مبتدأ أو خبراً أو فاعلاً...)٤٩ .

ولكن هل يشترط أن يذكر الباحث في اتجاه التفسير والإعجاز العلمي تفاصيل اللغة والإعراب؟. إن التفسير التحليلي مرحلة لازمة عند دراسة الآيات لبيان القضية الكونية المبحوثة، وهذه المرحلة تكون سابقة على المباشرة بالصياغة العلمية والمنهجية للتفسير الموضوعي، وعندما يستقر المفسر - أثناء الدراسة التحليلية - على رأي يرجحه فإنه يثبتته في بحثه ما دام للقول الذي اختاره حظ من النظر والاعتبار والدليل، على أن لا يكون هذا القول شاذاً أو مخالفاً أو مهجوراً، ويستحسن أن يعلق في الحاشية أن هذا ما يترجح له وأن ثمة أقوال أخرى لها اعتبارها، وقد تتساوى لدى الباحث أوجه المعاني، فيعرضها في بحثه بإيجاز، ويذكر أن المعنى الفلاني يدل على القضية التي يدرسها.

المسألة الثالثة: الاهتمام بالسياق القرآني:

إن معرفة السياق له دور كبير في بيان معامل الربط بين الآيات المتشابهات وتوضيح مظان المشكل في المختلفات، وحل موهم التعارض بينها، وهذا له أثر كبير في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، خاصة إن اجتمعت هذه الآيات المتشابهات المشكلات المختلفات في موضوع واحد، فالألفاظ ليست مكونات ذهنية مجردة وجامدة في دلالتها، بل هي للتداول، ولها دلالات ومعاني بحسب استخدامها في النظم، فالسما في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ) (النحل: ١٠)،

غير معناها في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ البقرة: ٢٩ (، وغير معناها في قوله تعالى:) وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (البقرة: ١٦٤)... وهكذا، فمراعاة السياق الذي وردت فيه السماء يخصص مدلولها، وإن كان الجامع بينها في الأصل اللغوي: العلو.

وتتأكد العناية به أكثر عند عدم وجود ما يبين الآية من المآثور، يقول الزركشي في معرض كلامه على تفسير ما لم يرد فيه نقل: (وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها بحسب السياق، وهذا يعتني به الراغب كثيراً في كتاب المفردات فيذكر قيماً زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ لأنه اقتنصه من السياق)٥٠، وينقل الزركشي في البحر النحيط عن العز بن عبد السلام(ت ٦٦٠هـ)

٤٩ - الاتقان للسيوطي ٤/ ١٢٢٠.

٥٠ - البرهان في علوم القرآن ٢/ ٣١٣.

قوله: (السِّيَاقُ يُرْشِدُ إِلَى تَبْيِينِ الْمَجْمَلَاتِ وَتَرْجِيحِ الْمُحْتَمَلَاتِ وَتَقْرِيرِ الْوَاضِحِ اتَّوَكَّلْ ذَلِكَ بِعُرْفِ الْأَسْتَعْمَالِ، فَكُلُّ صِفَةٍ وَقَعَتْ فِي سِيَاقِ الْمَدْحِ كَانَتْ مَدْحًا وَإِنْ كَانَتْ ذَمًّا بِالْوَضْعِ وَكُلُّ صِفَةٍ وَقَعَتْ فِي سِيَاقِ الذَّمِّ كَانَتْ ذَمًّا وَإِنْ كَانَتْ مَدْحًا بِالْوَضْعِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) (الدخان: ٤٦) ^{٥١}، ويقول الشاطبي رحمه الله (ت٧٩٠هـ): (كلام العرب على الإطلاق لا بد فيه من اعتبار معنى المساق في دلالة الصيغ، وإلصار ضحكة وهزءة، ألا ترى إلى قولهم: فلان أسد أوحمار، أو عظيم الرماد، أوجب ان الكلب، وفلانة بعيدة مهوى القرط، ومالا ينحصرنا لأمثلة، لواعبر اللفظ بمجرد لميكنلهمعنىم عقول؛ فما ظنك بكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم؟) ^{٥٢}. فيجب على الباحث أن يهتم بالسياق العام والخاص أثناء التفسير، والمراد بالسياق العام هو اعتبار مقاصد القرآن الكريم في ذكر الكونيات وبيانها وفي ذلك يقول الرازي رحمه الله (ت٦٠٦هـ): (والمقصود من كل القرآن تقرير أمور أربعة: الإلهيات، والمعاد، والنبوات، وإثبات القضاء والقدرة لله تعالى) ^{٥٣}، ولذلك كان الرازي يعتبر السياق الكلي للقرآن الكريم في تفسيره كله، ففي تفسير سورة النحل عند قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) (النحل: ١٠)، يقول: (اعلم أننا قد ذكرنا أن المقصود الأعظم من هذا القرآن العظيم تقرير أصول أربعة: الإلهيات والنبوات والمعاد، وإثبات القضاء والقدرة، والمقصود الأعظم من هذه الأصول الأربعة تقرير الإلهيات، فلهذا السبب كلما امتد الكلام في فصل من الفصول في وعيد الكفار عاد إلى تقرير الإلهيات) ^{٥٤}.

ويقول الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله (ت١٩٠٦م): (إن المقاصد الأساسية من القرآن وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد والنبوة والحشر والعدالة...) ^{٥٥}، ثم يقول أيضاً: (فكما تتراءى هذه المقاصد الأربعة في كله، كذلك قد تتجلى في سورة سورة...) ^{٥٦}، ويدخل في السياق العام أيضاً معرفة السياق العام للسورة، وعلى سبيل المثال، فإن معنى الموعظة الحسنة في قوله تعالى: (أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ

٥١ - الزركشي بدر الدين محمد بن بهادر، البحر المحيط في أصول الفقه ٤/٣٥٧ تحقيق د. محمد محمد تامر ط

دار الكتب العلمية، أولى ١٤٢١هـ.

٥٢ - الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي، الموافقات ٣/٤١٩ تحقيق: مشهور آل سليمان، ط دار ابن عفان الأولى ١٤١٧هـ.

٥٣ - الرازي، التفسير الكبير ١/١٥٦ ط دار إحياء التراث العربي.

٥٤ - الرازي، التفسير الكبير ٢٠/٢٣١

٥٥ - النورسي، سعيد، إشارات الإعجاز في مظان المجاز ص ١٤، ط: دار المحراب تركيا.

٥٦ - مصدر سابق ص ١٥.

بِالْمُهْتَدِينَ ﴿ (النحل: ١٢٥) يفسرها ابن جرير (ت ٣١٠هـ) بقوله: (وبالعبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه، وذكرهم بها في تنزيله، كالتي عدد عليهم في هذه السورة من حججه، وذكرهم فيها ما ذكرهم من آلائه)^{٥٧}، فقد اختار للموعظة الحسنة معنى يتناسب مع سياق سورة النحل التي أكثر الله فيها من ذكر النعم والآلاء معتبراً في ذلك السياق العام^{٥٨}.

فالقرآن الكريم لم يذكر العلوم المختلفة على أنها معلومات مجردة لذاتها، بل للدلالة بها على هذه المقاصد السابقة بالدرجة الأولى، وليصح التصور العقلي للناس من خلال التدبر فيها، وإن اعتبار السياق بالدراسة التفسيرية يرشد الباحثين للمقاصد القرآنية والانضباط بها، فما يفعله بعض المشتغلين في هذا الاتجاه من التفسير من ذكر تفاصيل جزئيات المعلومات الكونية التي لا ترتبط بالآيات القرآنية ولا تدخل في دلالتها؛ وتخرج الآيات من سياق القرآن الكلي، ومن مقصدها الهدائي الأساسي، إلى الظن أنها معلومة مجردة، مخالفة منهجية خطيرة تسيء لهذا الاتجاه من التفسير للقرآن الكريم.

وأما السياق الخاص: فهو معرفة المناسبات بين الآيات والجمل، من خلال ربط السبق باللاحق وعلاقة المفردة بأختها، ومناسبة اختيار المفردة القرآنية في مقاصد السورة المأخوذة منها.

المسألة الرابعة: منهج التعامل مع المنقول:

والمراد بذلك تفسير القرآن بالسنة وتفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين، فأما السنة فإنها في الأصل بيان القرآن، وفي التفسير الموضوعي ينبغي على المفسر أن يستدل من السنة بما يحتاج له البحث في بيان دلالة القرآن على القضية الكونية، وأما أقوال السلف الصالح كذلك ينبغي الاقتصار على ما يتعلق بالقضية من الآثار دون استطراد أو تعرض لخلاف يحول التفسير الموضوعي إلى تفسير تحليلي، وأهم ما يعرض للمفسر في هذا الشأن هو اختلاف الأقوال في المأثور، فليس الواجب على المفسر أن يوردها جميعها مع اختلافها، وإنما يختار من هذه الأقوال أثبتها وأقربها للقضية العلمية المراد بحثها، ولكل باحث اعتباره في طريقة عرض الآثار والأحاديث بما يتلاءم مع بحثه وعرض قضيته

٥٧ - الطبري محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن ١٧ / ٢٢١ تحقيق أحمد شاكر، ط الرسالة ٢٠٠٠م.

٥٨ - وقد جعلت إحدى الباحثات تعريفات السياق وجعلته في ثلاثة معاني: أحدها: النصوص السابقة واللاحقة لما يراد بيانه وتأويله، والنصوص البعيدة والسورة بأكملها، الثاني: قصد الشارع (الملحوظ في النص المراد تبيينه)، ومقاصد التشريع المبنية هنا وهناك، الثالث: سبب نزول الآية وحال المخاطبين وظروف القول. انظر: السياق عند الأصوليين، المصطلح والمفهوم د. فاطمة بوسلامة، مجلة الإحياء ص ٤٤، العدد ٢٥ جمادى الثاني ١٤٢٨هـ

دون إلزام بمنهج معين نحتمه عليه، ويجدر بنا بيان قضية مهمة في تفسير السلف الصالح وهي أنهم رضي الله عنهم قد يتكلمون في بعض الآيات بما كان شائعاً في عصرهم من المعارف^{٥٩}، فعلى المفسر أن يكون على دراية بدراسة روايات السلف في التفسير. ولا يجوز الاستشهاد بالإسرائيليات في التفسير الموضوعي عموماً وفي التفسير والإعجاز العلمي للقرآن خصوصاً، لأنها ليست من طرق التفسير المعتمدة.

المسألة الخامسة: منهج التعامل مع المعلومات الكونية:

وهذه من القضايا الشائكة التي ينبغي العناية بها بأهمية بالغة، وحتى نختصر الكلام فيها لا بد من القول أن العلوم الكونية، تنقسم من حيث المصادقية إلى فرضيات، ونظريات، ومثبتات (حقائق). أما النظريات: فهي القضية التي تحتاج لبرهان يثبت صحتها^{٦٠}، أي: هي الظن الراجح الذي لم يقل فيه العلماء المختصون كلمتهم الأخيرة النهائية، وهي قابل للتعديل والتغيير^{٦١}. أما الفرضيات: فهي الطرح الاحتمالي الذي لم يصل لدرجة النظرية، فهي إما ظن مرجوح ليس له برهان، أو ظن متردد بين احتمالين أو عدة احتمالات متكافئة^{٦٢}. أما المثبتات: فهي اليقينيات التي ثبتت بالبرهان القاطع وقد يعبر عنها بالحقائق، أو هي التي ثبتت مصداقيتها بتراكم التجارب الكثيرة على مر الزمن ولم تتخلف، أو كانت من المشاهدات الكونية التي لا يمكن للعقل إنكارها.

أما المثبتات فلا خلاف في جواز الأخذ بها في التفسير والإعجاز العلمي للقرآن الكريم ما دامت داخلية في دلالته، وقد اختلف العلماء حول جواز الأخذ بالنظريات العلمية في التفسير والإعجاز العلمي^{٦٣}، والذي أراه - والله أعلم - أنه يجوز في التفسير العلمي للقرآن الكريم الأخذ بالنظريات العلمية الصحيحة التي ارتقت إلى درجة الظن الراجح ولها حظ من النظر والدليل، وخاصة منها التي ارتفعت نسبة ثبوتها لتكون أقرب إلى المثبتات، على أن تحتلها الدلالة القرآنية بإحدى أنواع الدلالة المعتمدة، ذلك لأن التفسير اجتهاد بشري في الدلالات الظنية لنظم القرآن، وهذا الاجتهاد قابل للخطأ والصواب، واستخدام النظريات العلمية في بيان مدلولات ومعاني النص القرآني إنما هي من باب التأكيد العلمي على مدلول الآية في

٥٩ - انظر مثال ذلك تفسير ابن كثير ٤٩٢/٧، عند تفسير قوله تعالى ((يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان))، في ذكر تولدهما من ماء المطر، وانظر للتوسع منهج التفسير العلمي وتطبيقاته في سورة النحل ص.
٦٠ - انظر: المنجد في اللغة والأعلام ص ٨١٧ مادة نظر، ط: دار المشرق بيروت ١٩٩٢.
٦١ - انظر: الحبكنة، الشيخ عبد الرحمن، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، ص ٢٢٢ دار القلم دمشق، الثالثة ٢٠٠٤
٦٢ - انظر: قواعد التدبر الأمثل المصدر السابق.
٦٣ - ينظر: منهج التفسير العلمي وتطبيقاته في سورة النحل د. مرهف ص ١٧٤ إلى ١٧٦.

اللغة والسياق، أو من باب التدليل بالقرائن الخارجية المعتبرة للتوضيح والترجيح.

أما في الإعجاز العلمي فلا بد من استخدام المثبتات - الحقائق - وما استقر عليه العلم فقط، وأما النظريات فلا يجوز اعتبارها في الإعجاز العلمي، لأن الإعجاز كما ذكرنا في المقدمة سبق القرآن في الدلالة على علوم يقينية، فلا بد أن يكون موضوع سبق مستقراً ثابتاً حتى يصح الاستدلال عليه.

أما معرفة درجة مصداقية المعلومات الكونية فإنه يكون بالرجوع إلى أهل التخصص في كل علم في بيان درجة المعلومة المستخدمة في بيان القرآن الكريم وإعجازه، ولا يجوز اعتبار كثرة تداول النظرية في الأوساط الثقافية والشهرة دليلاً على كونها حقيقة كما يفعل بعضهم في نظرية الانفجار الكوني، فمعرفة كون المعلومة حقيقة علمية يحتاج من الباحث خوفاً من الله تعالى، وبحث علمي منهجي معتبر عند أهل التخصص، ولذلك يجب على المراكز العلمية والعلماء الكونيين تصنيف مصداقية ما لديهم لخدمة القرآن الكريم. ويجب على الباحث أن يراعي عدة أمور في استخدام المعلومات الكونية المختلفة في التفسير الموضوعي وهي:

- أن لا يستطرد الباحث في ذكر المعلومات التفصيلية إلا بما يخدم البحث التفسيري، كبيان ما يدخل في دلالة الآية، أو يفصل معانيها، أو يجلي فكرة الموضوع، لأن أبحاث التفسير والإعجاز العلمي هي في الأصل أبحاث في علوم القرآن، فلا ينبغي أن تغلب المعلومات الكونية على التفسير فينسى القارئ أنه يقرأ بحثاً تفسيرياً.

كما أن مثل هذه الأبحاث يراد بها إعطاء التصور القرآني للقضية الكونية، تكون فيها الآيات هي الأصل، والمعلومات خادمة لدلالاتها، ووصيفة لمعانيها، ويستحسن أن يقدم الباحث في مثل هذه الأبحاث بمقدمة مختصرة مفيدة تعطي تصوراً علمياً لقضية البحث، والله أعلم.

- إذا لم يجد الباحث معلومات كونية في درجة النظريات التي مر بيانها ليستخدمها في التفسير، بل وجد فرضيات وتصورات واجتهادات متواطئة لا تتعدى الاحتمال، فلا يجوز أن يلتفت إليها، بل يعتمد على ما ورد من النقول والدلالة اللغوية والسياق ويقتصر في تقرير قضيته على ذلك، لأن الاعتماد على المعلومات غير الثابتة والمرجوحة كالأخذ بالظن المرجوح وكالقول بالرأي دون علم، كما أنه يفتح باباً لضعاف العقول يجعلهم يتلاعبون بالنص القرآني استجراراً لنصرة فرضياتهم مع وجود الاحتمالات لغيرها في نظم الآية.

د. (إذا كان النص القرآني يحتمل التفسير ضمن ضوابط فهم النصوص العربية مع ما يتفق مع النظرية العلمية؛ فلا مانع من جعل تفسيره بما يتفق معها أحد الاحتمالات التي يمكن أن يفهم النصوص بمقتضاها، ولكن دون جزم ولا قطع، وتظل الاحتمالات الأخرى التي يحتملها النص مفتوحة مطروحة، حتى يأتي اليقين العلمي الذي تقرره أدوات ووسائل البحث العلمي الإنسانية)^{٦٤}.

وإن من المهم في ختام هذا المبحث أن نبين أمراً في غاية الأهمية:

إن التفسير الموضوعي للقرآن الكريم هو من طرق التفسير للقرآن الكريم، ولذلك لا بد لمن أراد أن يتعرض للعمل في هذا الطريق أن يكون على دراية تامة بالأدوات التي يحتاج إليها المفسر وأن يكون متأهلاً في نفسه بشروط المفسر المقررة في كتب علوم القرآن، فلا يجوز لمن لم يتأهل بشروط المفسر وأدوات التفسير أن يتعرض لتفسير القرآن مهما كانت درجته العلمية في العلوم الكونية، وإلا فإنه سيتعرض للقول في القرآن بغير العلم المراد له، وقد وردت الأحاديث والآثار في تحريم هذا، ومن ذلك ما أخرجه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قال في القرآن بغير علم فلن يؤمن الله به ولا الله به، وإنما العلم الذي نزل بها القرآن بالدرجة الأولى، ولذلك يقول الترمذي رحمه الله عند حديث جندب بن عبد الله مرفوعاً: (من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ)^{٦٥}، قال أبو عيسى: (هكذا روي عن بعض أهلا لعلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم أنهم شددوا في هذا في أن يفسر القرآن بغير علم وأما الذي روي عن مجاهد وقتادة وغيرهما من أهل العلم أنهم فسروا القرآن فليس الظن بهم أنهم قالوا في القرآن أو فسروه بغير علم أو من قبل أنفسهم)، ثم روى الترمذي بسنده إلى قتادة أنه قال: (ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيء)^{٦٦}، ليكون هذا الأثر دليلاً على أنهم رضي الله عنهم تكلموا في القرآن بعلم.

نعم: إن من قواعد الأبحاث العلمية احترام التخصصات العلمية، وإن امتلاك المسلم لثقافة شرعية عامة فإن هذا لا يعني كونه متأهلاً للبحث في تفسير القرآن، فإن التفسير الموضوعي يحتاج لبيان الدلالات وفهم طرق الاستنباط والتعامل مع أسباب النزول، والتعامل مع نصوص المفسرين وفهم مصطلحاتهم، فكيف له ذلك وهو غير مؤهل له!!.

٦٤ - انظر: قواعد التدبر الأمثل ص ٢٢٧.

٦٥ - جامع الترمذي، كتاب التفسير، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه برقم (٢٩٥٠)، وقال الترمذي حسن صحيح، تحقيق بشار عواد معروف، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨.

٦٦ - جامع الترمذي، كتاب التفسير، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه برقم (٢٩٥٢)

٦٧ - جامع الترمذي ٥ / ٥٠.

فإذا أراد الباحث المختص في غير علوم الشريعة - وخاصة منها التفسير - كتابة بحث في التفسير العلمي بطريقة التفسير الموضوعي؛ فعليه أن يستعين بمختص شرعي يعينه على الترتيب والاستنباط وشرح النصوص و...، ولذلك فإنني أقول: إن أبحاث التفسير والإعجاز العلمي للقرآن الكريم هي من الأبحاث ذات الطابع الجماعي وإن الانفراد فيها يعرض البحث والباحث للوقوع في الأخطاء العلمية^{٦٨}، وبالمقابل فإن المفسر المختص لا بد له أيضاً أن يراعي التخصص العلمي فيراجع المختصين في قيمة المعلومات التي يستخدمها في التفسير الموضوعي على ما بيناه سابقاً والله أعلم.

٦٨ - انظر: سقا، د. مرهف، (أبحاث الإعجاز العلمي ذات طبيعة متخصصة وعمل جماعي) مقال نشر في مجلة الحقيقة الصادرة عن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي مكة المكرمة التابعة لرابطة العالم الإسلامي العدد الثاني عشر، ذي القعدة ١٤٣٠ هـ

المبحث الثالث

تطبيق منهج التفسير الموضوعي في التفسير والإعجاز العلمي

يتركز البحث الذي نعرضه حول قضية جزئية محدودة في القرآن الكريم ألا وهي البيان العلمي لاطراد تقديم السمع على البصر في الآيات التي جاء ذكرهما فيها، وهل الواو في العطف بينهما تفيد الترتيب، وقد اخترت لهذا البحث التطبيقي عنوان (بيان الإعجاز في تقديم السمع على الأبصار في القرآن الكريم)، ولذلك فإنني سأقتصر على الآيات التي جاء فيها ذكر السمع والأبصار في مساق الخلق، لنخلص بنتيجة أن هذا التقديم المطرد له دلالاته العلمية التي تبرز جانباً من جوانب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، لأن المعلومات التي وظفت في البحث تعد من الناحية التطبيقية ثابتة يقينية إن شاء الله تعالى، تطبيقاً للقواعد المنهجية المرسومة في المبحث السابق.

وقد جعلت هذا النموذج في مقدمة ومطلبين وخاتمة، أما المقدمة فهي في التعريف بقضية البحث، أما المطلب الأول فهو تعريف بالسمع والبصر لغة ووجوه ورودها في القرآن، وأما المطلب الثاني فهو قضية البحث في بيان الآيات الخاصة لذلك وتفسيرها وتجليه وجه الإعجاز فيها، وعرضت في الخاتمة نتيجة البحث.

العنوان: بيان الإعجاز في تقديم السمع على الأبصار في القرآن الكريم

المقدمة: الحمد لله الذي نور العقول بالعلم والبصائر بالعبر، والأبصار بالحجج، والآذان بالسمع، والصلاة والسلام على المبين لخير ما أنزل الله تعالى، وأذن خير للمؤمنين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فقد حفل القرآن الكريم بعدد من الآيات التي بينت خلق الإنسان بمراحله العظمى، ودل القرآن إلى تفاصيل أخرى من مراحل خلق الإنسان يتبينها المتدبر للقرآن عند دراسة سياق نظمه، وبتقليب تصريف أساليبه، قال تعالى (قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فآبى أكثر الناس إلا كفوراً) (الإسراء: ٨٨، ٨٩)، يقول ابن كثير (ت ٧٧٤هـ): (أي: بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه)،^{٦٩}.

وهذا البحث هو تتبع لتصريف الآيات وبيان إحدى الحجج القاطعة الدالة على ربانية القرآن ونبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وصدق رسالته، إذ يتركز على قضية مباشرة ألا وهي بيان أحد أسباب اطراد تقديم السمع على الأبصار في الآيات التي ذكر

٦٩ - ابن كثير، محمد بن إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ٥ / ١١٧، تحقيق: سامي محمد سلامة، ط دار طيبة ١٩٩٩.

فيها السمع والأبصار في سياق ذكر خلق الإنسان، وأقول أحد الأسباب لأن هذا القرآن لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، فقد يظهر من المعارف ما يزيد في بيان أسباب أخرى لم تصل مدارك البشرية لها بعد.

المطلب الأول: السمع والبصر ووجوه ورودهما في القرآن:

السمع: لغة: حسُّ الأذن^{٧٠}، وهو قوة في الأذن به تدرك الأصوات^{٧١}، وقد يأتي في القرآن على وجوه^{٧٢}:

بمعنى الأذن الجارحة: كقوله تعالى: (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ) (البقرة:٧).

بمعنى السماع أي فعل السمع، كقوله تعالى: (إِنَّمَا سَمِعْنَا مَعَزُورًا) (الشعراء:٢١٢).

بمعنى الفهم، كقوله تعالى: (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) (النساء:٤٦) ومنه قوله تعالى: (ولو عَلَّمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ) (الأنفال:٢٣). وأكثر الآيات الواردة في هذا المساق تتضمن معنى التفهيم، ومن ذلك فهم القلب كقوله تعالى: (أو ألقى السَّمْعَ وهو شَهِيدٌ) (ق:٣٧).

وقد يتضمن معنى الطاعة كما في قوله تعالى: (ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) (الأنفال:٢١)، (وكل موضع أثبت فيه السمع للمؤمنين أو نفى عن الكافرين أو حث على تحريه؛ فالقصد به إلى تصور المعنى والتفكير فيه)^{٧٣}.

البصر: البَصْرُ حَسُّ العَيْنِ والجمع أَبْصَارٌ^{٧٤}، وقد يقال للجارحة بصر أيضاً كقوله تعالى: (كَلَّمَحَ بِالْبَصْرِ) (القمر:٥٠)، وقوله تعالى: (لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ) (الأنعام:١٠٣)^{٧٥}، وأما معنى: قوة القلب المدركة فهي البصيرة^{٧٦}، وهي القوة المنتجة للعبارة، قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا القُرُونِ الأُولَى بِصَائرٍ لِلنَّاسِ) (القصص:٤٣).

أقول: والبصر في القرآن الكريم يفسر على جهتين: أحدهما من حيث كونه حاسة، وثانيهما: من حيث المقصد والنهاية، وهو بهذه الجهة تسعة وجوه في القرآن الكريم كما

٧٠ - ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب ٨ / ١٦٢، ط دار صادر بيروت، أولى.

٧١ - الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد المفردات في غريب القرآن، ص ٤٢٥ مادة سمع، تحقيق صفوان داودي، ط دار القلم ١٤١٢ هـ دمشق.

٧٢ - انظر: المفردات في غريب القرآن، ص ٤٢٥ مادة سمع، الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ٣ / ٢٥٧ - ٢٦٠، ط المكتبة العلمية، بيروت، لسان العرب ٨ / ١٦٢.

٧٣ - بصائر ذوي التمييز ٣ / ٢٥٨.

٧٤ - انظر: لسان العرب ٤ / ٦٤ مادة بصر. ونقله عن ابن سيده. المفردات في غريب القرآن ص ١٢٧ مادة بصر.

٧٥ - انظر: لسان العرب ٤ / ٦٤، المفردات في غريب القرآن ص ١٢٧، بصائر ذوي التمييز ٢ / ٢٢٢.

٧٦ - بصائر ذوي التمييز ٢ / ٢٢٢.

ذكرها الفيروزآبادي (٨١٧هـ) في بصائره^{٧٧}، كما أنه يفرد البصر عندما يكون المراد إبصار مفرد بعينه بقصد، ويجمع عندما يراد منه العموم، وبيان ذلك كله:

أولاً: البصر حاسة من حيث المعنى، مفرد من حيث اللفظ، ويراد به وجوه من حيث المقصد: قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٢﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ الملك: ٣ - ٤

بصر النظر والحجة.

قوله تعالى: (ما زَاغُ الْبَصَرُ وما طَغَىٰ (النجم: ١٧))، بصر الأدب والحرمة.
قوله تعالى: (وما أَمْرُنَا إِلَّا وَاحدةً كَلَمَحٍ بِالْبَصَرِ (القمر: ٥٠))، بصر للتعجيل والسرعة.
قوله تعالى: (فَإِذَا أَبْرَقَ الْبَصَرُ (القيامة: ٧))، بصر الحيرة والحسرة.
قوله تعالى: (وَجَعَلَ عَلَيَّ بَصَرَهُ غِشَاوَةً (الجاثية: ٢٣))، بصر للعمى والجهالة في الكافر.
قوله تعالى: (إِن السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ (الإسراء: ٣٦))، بصر سؤال عن الحجة والطاعة والمعصية.
ثانياً: البصر: حاسة من حيث المعنى، جمع من حيث اللفظ، ويراد منه وجوه من حيث المقصد: قوله تعالى: (فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ (الأحقاف: ٢٦))، بصر في عدم الفائدة والمنفعة.

قوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ (النحل: ١٠٨))، بصر للغي والغفلة.

قوله تعالى: (فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (محمد: ٢٣))، بصر للغطاء واللعنة.
قوله تعالى: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ (الأنعام: ١٠٣))، بصر لإبعاد المنكرين عن اللقاء والرؤية.
قوله تعالى: (خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً (البقرة: ٧))، بصر ختم للخسارة.

قوله تعالى: (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (الحشر: ٢))، بصر للنظر والعبرة.

ولم يرد في القرآن الكريم السمع جمعاً قط، سواء اقترن بالبصر أم لم يقترن به، وإنما جاء مفرداً مضافاً ومنكراً ومعرفاً، وقد ذكر ابن عاشور سبب أفراد السمع وجمع الأبصار فقال: (وأفرد السمع لأنه مصدر فهو دال على الجنس الموجود في جميع حواس الناس، وأما الأبصار فجيء به جمعاً؛ لأنه اسم؛ فهو ليس نصاً في إفادة العموم لاحتمال توهم بصر مخصوص، فكان الجمع أدل على قصد العموم، وأنفى لاحتمال العهد)^{٧٨}.

٧٧ - بصائر ذوي التمييز ٢ / ٢٢٤، ومقاصد البصر الواردة بعد هي من نفس المصدر. وينظر في ذلك للتوسع أيضاً: الخطيب، د. عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن ٦ / ١٠١، ١٠٠٢، ط دار الفكر العربي، القاهرة.

٧٨ - ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ١١ / ١٥٦، ط الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤.

وهذا تعليل من حيث المعنى المقتضي من اللغة، وقد يستخرج من الأفراد والجمع فوائد متعددة بالنظر إلى عموم مسافات الآيات الواردة فيها السمع والأبصار، فنقول: إن مدركات كل حاسة تختلف عن الأخرى، فمدركات السمع شيء واحد فقط ألا وهو الصوت، وأما مدركات البصر فهي كثيرة، فالكون المحسوس كله يقع تحت إدراك البصر فالشمس والقمر والنجوم، والشجر والحجر والمياه، والطيور والحشرات.. الخ كلها مدركة للبصر متغايرة بالجنس والنوع فهي أبصار^{٧٩}.

كما أن السمع لا يستطيع أن يضبط أكثر من مسموع واحد يفهم منه ويعي عنه، فإذا تداخلت الأصوات واختلطت ذهب إدراك السمع وصار شتاتاً ينقلب على صاحبه مقتاً ونكداً.

أما البصر فإنه ينقل كثيراً من المرئيات في حال واحدة، ويحتفظ لكل مرئي بصورته، دون أن تختلط بغيرها، وينقلها إلى الإدراك منفصلة، كما ينقلها إليه متصلة؛ فهو - من هذه الجهة - أبصار، وليس بصراً واحداً، ولذلك ذكرنا فيما سبق أنه عندما يراد إبصار شيء بعينه قصداً فإن القرآن يفرد البصر كما في قوله تعالى (فارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) (تبارك: ٤)، فقد أمر البصر هنا بالنظر إلى شيء واحد ألا وهو السماء دون غيرها فأفرده، والله أعلم.

المطلب الثاني: الإعجاز في تقديم السمع على الأبصار؛

ذكرنا فيما سبق معنى السمع والأبصار ووجوه تعريفها في القرآن الكريم، وقد لاحظنا في الآيات السابقة اطراد تقديم السمع على الأبصار مما طرح تساؤلاً للبحث حول بيان هذه الظاهرة؛ وهل الواو أفادت الترتيب وبالأخص في الآيات التي جاءت في مساق بيان قدرة الله تعالى ووحدانيته في خلق الإنسان، والآيات هي:

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأُمُورَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْفِوْنَ ﴿٣١﴾﴾ يونس: ٣١ ومعنى: (أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ) أي: من جعل لكم القوة السامعة والقوة الباصرة، وخلقهما لكم، ومن يقدر على خلقهما على الحد الذي سويًا عليه من الفطرة العجيبة، ويحميها من الآفات على كثرتها^{٨٠}.

قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

٧٩ - ينظر: التحرير والتنوير ١٨ / ١٠٤.

٨٠ - انظر: القرطبي الجامع لأحكام القرآن، ٨ / ٣٣٥، تحقيق: سمير البخاري ط دار عالم الكتب السعودية ٢٠٠٣، ابن كثير ٤ / ٢٦٦، التحرير والتنوير لابن عاشور ١١ / ١٥٦.

وَالْأَفْتِدَةَ لِعُلْمِكُمْ تَشْكُرُونَ (النحل: ٧٨).

قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْتِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (المؤمنون: ٧٨)).
 (ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْتِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (السجدة: ٩)).
 (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْتِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (الملك: ٢٣)).

لقد جاءت هذه الآيات في سياق عام واحد ألا وهو ذكر دلائل عظمة الله تعالى ووحدانيته وقدرته وكمال صفاته سبحانه، ففيها إقامة الحجة على المشركين أن الله وحده الخالق الرازق المحيي المميت، القادر..

والمنة في الآيات بالحواس؛ والأعضاء داخله في ذلك ضمناً لأنها محالها، كما أن محل حصول المعرفة وقيام الحجة بالحواس أصلاً لا بالأعضاء فقط، فما فائدة أن يكون للإنسان عين لا يبصر بها وأذن لا يسمع بها وقلب لا يعقل به، قال تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا (الأعراف: ١٧٩)).

وفي هذه الآيات ثلاث مسائل: إحداها: إننا نجد في الآيات السابقة أسلوبين في التعبير عن خلق السمع والبصر، أحدهما بلفظ الإنشاء كما في آية المؤمنون: ٧٨) في قوله تعالى: (أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ)، و أما في باقي الآيات السابقة فقد عبر القرآن عن خلق السمع والبصر بالجعل.

والسبب في ذلك - والله أعلم - أن في آية المؤمنون كان المراد الاحتجاج بخلق السمع والأبصار قصداً على انفراد الله تعالى بصفات الإلهية والامتنان بما منح الناس من نعمة لعلمهم يشكرون بتخصيص الله تعالى بالعبادة، ولذلك يذكر ابن عاشور في تفسيره أن هذه الآية إما معطوفة على قوله تعالى (وَأَنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً (المؤمنون: ٢١))، للعودة على الغرض الأول، أو أن الآية استئنافية رجوعاً لغرض الاستدلال والامتنان^{٨١}، ولذلك اختار القرآن لخلق السمع والأبصار في هذه الآية قوله «أنشأ»، لأن معناها (إحداث الشيء وتربيته)^{٨٢}.

أما في باقي الآيات فقد كان الامتنان والاحتجاج على صفات الله تعالى بخلق الإنسان عموماً، ثم خصص ذكر السمع والأبصار بالذكر من بين خلق الإنسان عموماً لعجيب الفطرة التي فطرهما الله عليها وبديع الصنع الذي فيهما، واستناد الحجج القائمة على وجود الله تعالى ووحدانيته على سلامتهما، ولذلك اختار القرآن لخلق السمع والأبصار

٨١ - انظر: التحرير والتنوير ١٨ / ١٠٢.

٨٢ - انظر: المفردات للراغب ص ٨٠٧ مادة نشأ.

لفظ «جعل»، فالجعل (لفظ عام في الأفعال كلها وهو أعم من فعل وصنع وسائر أخواتها)^{٨٣}، وبالفارق بين المفردتين «أنشأ وجعل» تدبر **قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾** الملك: ٢٣

المسألة الثانية: المفسرون على أن جعل السمع والبصر والأفئدة في بطون الأمهات قبل الولادة^{٨٤}، قال أبو عبيدة (ت ٢٠٩هـ): (وإنما جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة قبل أن يخرجهم، غير أن العرب تقدم وتؤخر)^{٨٥}، وقال البغوي (ت ٥١٠هـ): (لا تعلمون شيئاً) تم الكلام، ثم ابتداء فقال جل وعلا) **وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ** لأن الله تعالى جعل هذه الأشياء لهم قبل الخروج من بطون الأمهات، وإنما أعطاهم العلم بعد الخروج)^{٨٦}،

ويقول أبو السعود (ت ٩٨٢هـ): (وليس فيه دلالة على تأخر الجمع المذكور عن الإخراج لما أن مدلول الواو هو الجمع مطلقاً لا الترتيب، على أن أثر ذلك الجعل لا يظهر قبل الإخراج أي جعل لكم هذه الأشياء ألا تتحصّلون بها العلم والمعرفة)^{٨٧}.

المسألة الثالثة: في تقديم السمع على البصر، ودلالة الواو: وقد تقدم القول أن هذه ظاهرة مطردة في القرآن الكريم، ولما كانت الآيات التي ذكر فيها خلق السمع والأبصار في مساق آيات خلق الإنسان فكان ذلك إشارة إلى حصول خلقهما؛ أي إن خلق السمع يتقدم على خلق الأبصار في الجنين ولبيان ذلك انظر الجدول الآتي الذي يبين مراحل خلق كل من الحاستين في الجنين^{٨٨}:

٨٣ - انظر: المفردات للراغب ص ١٩٧ مادة: جعل.

٨٤ - انظر: ابن جرير ١٧ / ٢٦٦،

٨٥ - نقله ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير ٤/٣٤٧، تحقيق محمد عبد الله، السعيد زغلول، ط دار الفكر بيروت، أولى ١٤٠٧هـ.

٨٦ - البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل ٥/٣٤ تحقيق: محمد النمر، عثمان ضيمرية، سليمان الحرش، ط دار طبية للنشر، الرابعة ١٤١٧هـ.

٨٧ - أبو السعود محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ١٣١/٥، ط دار إحياء التراث.

٨٨ - انظر إضافة للمراجع المذكورة في أسفل الجدول عند كل حاسة: د. شفيق عبد الملك، تكوين الجنين، من ص ١٨٠ إلى ص ١٩٦، ط المطبعة التجارية الحديثة، مصر، الثانية ١٩٧٦.

The Biology of Prenatal Development، "بيولوجية التطور في مرحلة قبل الولادة على موقع":

http://www.ehd.org/resources_bpd_documentation.php?language=4

وتبيين التطور التدريجي للحواس عند الجنين على الرابط:

http://www.ct4women.com/pc_development.html

وينظر للتوسع: John F. Cogan. SCIENCE SHEDS LIGHT ON UNBORN HUMAN LIFE، "أكواخ العلم الضوء على حياة البشر الذين لم يولدوا بعد": بحث مستفاد من الشبكة العنكبوتية على موقع: www.ct4women.com.

مراحل تخلق البصر في الجنين	مراحل تخلق السمع في الجنين
<p>تظهر حويصلة الإبصار البدائية في منتصف الأسبوع الثالث الرحمي، وفي الأسبوع الرابع تبدأ خلايا حويصلة الإبصار تتباين من جدار حويصلة المخ الأمامي، وفي أواخر الأسبوع الرابع وأوائل الخامس يبدأ ظهور عدسة العين كثخانة تشبه القرص في الطبقة الأديمية الخارجية، وفي الأسبوع الخامس تبدأ حويصلة الإبصار في الانغماد فتتخذ شكل كأس ما تلبث حوافه العلوية والسفلية (الطبقة الأديمية الخارجية) بالالتصاق بشكل كامل بنهاية الأسبوع السادس، تنمو الأجنان العلوية والسفلية بسرعة بين الأسبوع السابع والثامن وتكتمل وتلتصق مع بعضها بالأسبوع العاشر لتعود وتتباعد عن بعضها بين الأسبوعين ٢٠ و ٢٣،</p> <p>تبدأ الشبكية بالتشكل من الطبقة العصبية بالأسبوع السادس بينما يكتمل شكل العصب البصري بالأسبوع التاسع، تستمر الشبكية بالتمايز والتطور حتى الأسبوع ٣٢، تتشكل بقعة الشبكية التي لها دور محوري ومهم بالرؤية بالأسبوع ٢٠ وتتشكل اللطخة بمركزها بالأسبوع ٢٤</p>	<p>في مستهل الأسبوع الثالث تتشكل نواة الجهاز السمعي على شكل ثخانة بسيطة على جانبي الرأس، وفي آخر الأسبوع تبدأ هذه الثخانة أكثر وضوحاً، ثم تتحول إلى حفرة ثم إلى حويصلة وذلك بعد الأسبوع الرابع الرحمي، وفي أثناء الأسبوع الرابع الرحمي يُحاط العرف العصبي بالطبقة الأديمية المتوسطة في منطقة المخ الخلفي لتكون العقدة السمعية البدائية التي تتحكم بالاتزان، وعقدة أخرى تتحكم بالسمع تسمى العقدة الحلزونية أو السمعية.</p> <p>وفي خلال الأسبوع السابع تتشكل الأذن بالمرور في عدة مراحل من انبعاجات وقنوات واستطالة قناة القوقعة لتكون نواة العقدة الحلزونية للقوقعة</p>

<p>في الشهر الثاني الرحمي يبدأ ظهور ألياف شفافة بين قاع الكوب البصري والسطح الخلفي للعدسة وهذه الألياف هي نواة الجسم الزجاجي، وفي الشهر الثالث الرحمي تكون حويصلة الإبصار قد أفرزت من المخ بواسطة ساق صغيرة تسمى السويقة البصرية</p>	<p>بين الأسبوع العشرين والأسبوع الثالث والعشرين تصبح قوقعة الأذن التي هي عضو حاسة السمع كاملة ويبلغ حجمها حجم قوقعة البالغ بداخل الأذن الداخلية الكاملة، ومن الآن فصاعداً فإن الجنين سيستجيب لعدد متزايد من الأصوات</p>
<p>بنهاية الأسبوع ٢٤ تبدأ الأجفان بالتفتيح، وبنهاية الأسبوع ٢٦ تبدأ العينان بإفراز الدموع، وتستجيب حلقات العين للضوء اعتباراً من الأسبوع ٢٧ وهذه الاستجابة تنظم كمية الضوء التي تصل إلى الشبكية طوال الحياة.</p>	<p>بنهاية الأسبوع ٢٤ يظهر الجنين استجابة إيجابية للأصوات المفاجئة الصاخبة، ويكون هذا مبكراً عند الجنين الأنثى، ويورد كثير من الباحثين أن الضوضاء الصاخبة قد تحدث ضرراً على صحة الجنين وقد يكون لها آثار مباشرة عليه كازدياد سرعة دقات القلب وإفراط في البلع، وتغيرات سلوكية مفاجئة، وقد يكون للضوضاء الصاخبة آثار مستقبلية طويلة الأجل تتمثل بفقدان السمع.</p>
<p>في تمام الشهر السابع يكمل تكوين طبقات الشبكية ويكتمل تكوين العصب البصري</p> <p>المراجع</p> <p>1- "A textbook of clinical ophthalmology" R. Pitts Crick & Peng Tee Khaw: المؤلف صفحة: 43 إلى 50 الطبعة رقم: 3 سنة: 2003</p> <p>2- "The eye: basic sciences in practice" John V. Forrester: المؤلف الطبعة رقم: 2 سنة: 2002 صفحة: 99 إلى 113</p>	<p>بنهاية الأسبوع ٢٨ يمكن للجنين أن يميز بين الأصوات ذات الحدة المرتفعة والمنخفضة.</p> <p>المراجع</p> <p>1- "Essential Otolaryngology: head & Neck Surgery" Keat Jin Lee المؤلف الطبعة رقم: ٨ سنة: ٢٠٠٣ صفحة: ١١ إلى ٢٢</p> <p>2- "Developmental neurocognition: speech and face processing in the first year" Bénédicte de Boysson-Bardies المؤلف الطبعة رقم: 1 سنة: 1993</p>

وبذلك نتبين أن وظيفة السمع عند الجنين تصبح جاهزة للعمل والقيام بمهامها في الشهر الخامس من عمر الجنين، فيسمع أصوات حركات أمعاء ونبضات قلب أمه، وتتولد إشارات سمعية في أذنه الداخلية، أما العين فلا يتم تكامل طبقتها الشبكية الحساسة للضوء إلا بعد الأسبوع السابع والعشرين من الحمل، أي قريباً من سبعة أشهر من الحمل، وهذا كله يعني أن نضوج حاسة السمع وأعضائها تسبق بكثير نضوج حاسة البصر وأعضائها في الخلقة، وتقديم السمع على البصر في هذه الآية وشبهاتها من آيات كتاب الله تعالى تدل لذلك - دلالة إشارة النص -، وهذا توجيه للآية قوي، وقرينة واقعية في اعتبار الواو لترتيب الخلق والتكوين.

وقد يعترض عليه بأن هذا الاستدلال يؤخذ عليه أن السياق لا يساعد عليه في الآية هنا وذلك لأن السمع والبصر لا يحصلان بدون العقل، وهو على هذا مخلوق قبلهما فلماذا تأخر ذكره عنهما إذن؟

أقول: يجاب على ذلك أننا ذكرنا بأن المنة بالحاسة والأثر لا بالعضو فقط، والطفل - وإن كان يسمع في بطن أمه - إلا أنه لا يعقل، وإن كان يرى بعد الولادة بزمن إلا أنه لا يعقل إلا بعد أشهر، فإثر العقل لا يحصل إلا بعد الولادة، كما يقول ابن جرير: (وانما أعطاهم العلم والعقل بعد ما أخرجهم من بطون أمهاتهم)^{٨٩}، أي بعد تمام خلق السمع والبصر، وإن كانت محال التعقل مخلوقة ولكنها غير مدركة إلا بعد الولادة، وعلى هذا تكون الواو بين هذه المذكورات للترتيب والله أعلم. ولذلك يقول أبو السعود: (على أن أثر ذلك الجعل لا يظهر قبل الإخراج أي جعل لكم هذه الأشياء ألا تتحصّلون بها العلم والمعرفة بأن تُحسّوا بمشاعركم جزئيات الأشياء وتُدركوها بأفئدتكم وتنبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرّر الإحساس في حصل لك معلّم بديهية تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية)^{٩٠}،

ويقول ابن عاشور (ت ١٩٧٣م): (ثم ذكر بعدهما الأفتدة، أي العقل مقرّ الإدراك كله، فهو الذي تنقل إليه الحواس مدركاتها، وهي العلم بالتصوّرات المفردة)^{٩١}. ويصير المعنى على ذلك وجعل لكم السمع والبصر، وجعل لكم أيضاً آثار كمالهما من اتقاد الأفكار وحصول العلم بهما، فتحصّل العلم والتعقل بالسمع والبصر حاصل بعد كمالهما والله أعلم.

٨٩ - ابن جرير: ٢٦٦/١٧.

٩٠ - أبو السعود ١٣١/٥.

٩١ - التحرير والتنوير ٢٣٣/١٤.

الخاتمة

لقد تبين لنا من خلال هذا البحث أن المعلومات الطبية في تكون الجنين بينت لنا سبباً قوياً من أسباب اطراد تقديم السمع على الأبصار في القرآن الكريم، ورجحت هذه المعلومات الثابتة عند أهل التخصص - بعد التحقق منهم على ثبوتها - أن الواو بين السمع والأبصار للترتيب، وهذا الترتيب حمل إشارة لترتيب تكوين حاسة السمع على البصر في الجنين - إشارة النص -، ويقوي هذا الاستدلال مجيء هذا الترتيب في سياق الآيات التي ذكرت الحجة على وحدانية الله وقدرته في خلق الإنسان، وأما تأخير ذكر الفؤاد فلأن إدراكه وتعقله لا يحصل إلا بعد الولادة وإن كان وجوده من حيث الأصل قبل خلق السمع والبصر ليكون هذا البيان دليلاً على وحدانية الله وربانية القرآن، وبذلك ندرك إعجازاً بيانياً وعلمياً من إعجاز القرآن الكريم والله أعلم، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

خاتمة البحث: أهم النتائج والتوصيات:

الحمد لله تعالى الذي أعان على تتمة البحث، وأسأله أن يتم نعمته علينا بالقبول، وبعد: بعد هذه الجولة في منهج التفسير الموضوعي في أبحاث التفسير والإعجاز العلمي؛ لا بد من تسجيل أهم النتائج والتوصيات:

أولاً: أهم النتائج:

١- يغلب على المؤلفات في التفسير والإعجاز العلمي بطريقة التفسير الموضوعي الخلل من جانبين أو من أحدهما: إما من الجانب العلمي الشرعي بطريقة فهم النصوص والاستدلال والتعامل مع كتب التفسير، وهذا يعود لعدم تخصص الكاتب بالعلوم الشرعية وخاصة منها التفسير، أو من جهة الخلل العلمي بتوظيف العلوم الكونية واختيار المعلومة الصحيحة، وهذا يعود لعدم تخصص الكاتب بالعلم الكوني للقضية المبحوث فيها.

٢- يمر التفسير الموضوعي في أبحاث التفسير والإعجاز العلمي بمراحل أساسية وهي أ. اختيار الموضوع؛ وينبغي أن يكون الموضوع له وجود في القرآن الكريم، وأن يكون الباحث متمكناً في موضوعه ومقتنعاً به، ويضع له عنواناً مناسباً. ب. وضع خطة منهجية للبحث.

ج - الاستقراء والجمع: بسبب غور الآيات المتعلقة بالقضية المبحوثة، وهذا الاستقراء على نوعين إما تام وإما غير تام، وغالباً ما يستعمل غير التام في المقالات العلمية المختصرة حيث يقتصر فيها على أهم الآيات وأشملها للتدليل على جزئية معينة.

د - ترتيب الآيات وتصنيفها: ولا يشترط في الترتيب أن يكون على المكي والمدني وإنما على توافق المواضيع الكلية والجزئية ولا مانع من تكرار الآية إن كانت تحمل أكثر من موضوع في ضمنها.

هـ - البحث التفسيري: وهو لب البحث العلمي الذي ينبغي أن يولييه الباحث اهتماماً بالغاً، ويتمثل هذا البحث في أمرين: قراءة تفسيرية تحليلية للآيات، ثم صياغة نهائية للبحث العلمي، ويجب أن يراعي الباحث في هذه المرحلة المسائل الآتية:

- الاهتمام بأسباب النزول إن وجد لأنه يساعد على فهم المعنى.
- الاهتمام باللغة العربية وعلومها بما يخدم التفسير وبيان وجه الدلالة والاستدلال.
- الاهتمام بالسياق القرآني، والسياق قسمان: سياق عام يتمثل بمعرفة مقاصد القرآن، وسياق خاص يتمثل بمعرفة مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها ومناسبة الجمل والمفردات لبعضها.
- الاهتمام بالمنقول، أي بما ورد في الآية من تفسير نبوي وآثار السلف الصالح في التفسير، وأما منهج التعامل معها فهو باختيار ما يناسب البحث من ذلك والاقتصار على ما يوضح المعنى، وينبغي الحذر من الإسرائيليات فليست من طرق التفسير وخاصة في مجال التفسير العلمي للقرآن.
- ٢- منهج التعامل مع العلوم الكونية: أما في التفسير العلمي يجوز الاستشهاد بالنظريات العلمية ذات البرهان العلمي؛ وبالحقائق من باب أولى، أما في الإعجاز العلمي فلا يجوز الاستشهاد إلا بالحقائق العلمية الثابتة، وينبغي أن يقتصر الباحث على المعلومات التي تتعلق ببحثه دون تفصيل لا يحتاج له البحث، وأن تكون مصادره العلمية موثقة من أحدث المصادر العلمية متخصصة.
- ولا يجوز الاستشهاد بالفرضيات والتصورات وإن دخلت في الدلالة القرآنية بل ينبغي الاقتصار على الدلالة اللغوية فقط لأن الحجة فيها.
- ٤. أبحاث التفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم ذات طابع تخصصي وجماعي، فيجب على المفسر المتخصص أن يستعين بأهل التخصص في القضية المبحوثة

فيها ويجب على المتخصص في العلوم الكونية أن يرجع لأهل التفسير والاستنباط في توجيه الاستدلال وتصحيح مسار البحث.

ثانياً : التوصيات :

- ١- تشجيع الأبحاث العلمية الجادة والمتخصصة في التفسير والإعجاز العلمي ودعمها ومتابعتها وخاصة منها التي تعتني بالجانب النظري والعملي.
 - ٢- إنشاء مركز أبحاث متكامل من لجان علمية متخصصة في العلوم الشرعية والعلوم الكونية المختلفة لدراسة موضوعات القرآن الكريم في القضايا الكونية وفق منهج التفسير الموضوعي تكون القضايا القرآنية هي الأصل في الدراسة وفق ضوابط التفسير وقواعده، ويستنبط بذلك من القرآن قضايا علمية تنهض بالأمة من جديد.
 - ٣- تقرير مادة ضوابط التفسير والإعجاز العلمي في الكليات والمعاهد الشرعية.
- والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع:

- ١- اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر شريف، محمد إبراهيم ، دار التراث، القاهرة، أولى ١٩٨٢م.
- ٢- الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، تحقيق مكتب الدراسات القرآنية، ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤٢٦هـ.
- ٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبوالسعود محمد بن محمد العمادي، ط دار إحياء التراث.
- ٤- إشارات الإعجاز في مظان المجاز النورسي، سعيد، ط: دار المحراب تركيا.
- ٥- الإشارات العلمية في القرآن الكريم ، الشيخ محمد وفا الأميري طباعة دار الرضوان حلب الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.
- ٦- البحر المحيط في أصول الفقه الزركشي بدر الدين محمد بن بهادر، تحقيق د. محمد محمد تامر ط دار الكتب العلمية، أولى ١٤٢١هـ
- ٧- البرهان في علوم القرآن الزركشي، محمد بن عبد الله ، تحقيق المرعشلي، ط دار المعرفة.
- ٨- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، ط المكتبة العلمية، بيروت.
- ٩- التحرير والتنوير ابن عاشور، محمد الطاهر ، ط الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤.
- ١٠- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، محمد بن إسماعيل ، تحقيق: سامي محمد سلامة، ط دار طيبة ١٩٩٩.
- ١١- التفسير القرآني للقرآن الخطيب، د. عبد الكريم، ط دار الفكر العربي، القاهرة.
- ١٢- التفسير الكبير. الرازي ط دار إحياء التراث العربي.
- ١٣- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم د. أحمد السيد الكومي، د. محمد أحمد يوسف القاسم ط مصر ١٤٠٢هـ.
- ١٤- التفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم ضوابط وتطبيقات، ط: دار محمد الأمين دمشق، الأولى ٢٠١٠م.
- ١٥- تكوين الجنين د. شفيق عبد الملك،، ط المطبعة التجارية الحديثة، مصر، الثانية ١٩٧٦.
- ١٦- تبينه العقول الإنسانية لما في آيات القرآن من العلوم الكونية والعمرانية محمد بخيت المطيعي، تقديم: عبد الرحمن عيسى ط مكتبة أحمد ربيع، حلب ١٩٦٩م.

- ١٧- جامع البيان في تفسير القرآن الطبري محمد بن جرير تحقيق أحمد شاكر، ط الرسالة ٢٠٠٠م.
- ١٨- جامع الترمذي، تحقيق بشار عواد معروف، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨.
- ١٩- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: سمير البخاري ط دار عالم الكتب السعودية ٢٠٠٣
- ٢٠- الجراد في القرآن الكريم والعلم الحديث د.كارم السيد غنيم، د.عبد العظيم محمد الجمال، ط دار الصحوة مصر، ١٩٨٨م.
- ٢١- الركام المزني والظواهر الجوية في القرآن الكريم لصلاح الدين عارف جنيد، ط مطبعة الزرعي دمشق أولى ١٩٩٩م.
- ٢٢- زاد المسير فيعلمنا لتفسير، ابنا الجوزي عبد الرحمن بن علي تحقيق محمد عبد الله، السعيدز غلول، ط دار الفكر بيروت، أولى ١٤٠٧هـ.
- ٢٣- السماء في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، ط: دار المعرفة، ثانية ٢٠٠٥م.
- ٢٤- الطب في القرآن، د.محمد جميل الحبال، د. وميض العمري ط دار النفائس، بيروت، الأولى ١٩٩٧م.
- ٢٥- العلوم الفلكية في القرآن الكريم، د. سيد وقار أحمد حسيني، ط دار طلاس سوريا ١٩٩٦م.
- ٢٦- العلوم في القرآن الكريم الدكتور محمد جميل الحبال الدكتور مقداد مرعي الجوارى طباعة دار النفائس، بيروت أولى ١٩٩٨م.
- قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، الحبنكة، الشيخ عبد الرحمن دار القلم دمشق، الثالثة ٢٠٠٤.
- ٢٧- لسان العرب ابن منظور، محمد بن مكرم، ط دار صادر بيروت، أولى.
- ٢٨- ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان الآلوسي، محمود شكري تحقيق: زهير شاويش، ط المكتب الإسلامي، أولى ١٩٦٠.
- ٢٩- مباحث في التفسير الموضوعي د.مصطفى مسلم، ط دار القلم دمشق الأولى ١٤٢٠هـ.
- ٣٠- المدخل إلى التفسير الموضوعي، فتح الله السعيد، د. عبد الستار، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، الثانية، ١٩٩١م.
- ٣١- معالم التنزيل البغوي، الحسين بن مسعود تحقيق: محمد النمر، عثمان ضيمرية، سليمان الحرش، ط دار طيبة للنشر، الرابعة ١٤١٧هـ.
- ٣٢- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، تحقيق صفوان داودي، ط دار القلم ١٤١٢ هـ دمشق.
- ٣٣- المفهوم العلمي لجبال في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، ط دار الشروق الدولية مصر، أولى ٢٠٠٢م.

- ٢٤- من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في ضوء الدراسات الجغرافية الفلكية والطبيعية، د.حسن أبو العينين، ط مكتبة العبيكان السعودية، أولى ١٩٩٦م.
- ٢٥- المنجد في اللغة والأعلام ط: دار المشرق بيروت ١٩٩٢.
- ٢٦- منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، دراسة نقدية، رشواني، د. سامر عبد الرحمن، ط: دار الملتقى حلب الأولى ٢٠٠٩م.
- ٢٧- الموافقات الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي، تحقيق: مشهور آل سليمان، ط دار ابن عفان لأولى ١٤١٧هـ.
- ٢٨- المياه في القرآن، منهاج لتفسير الإشارات العلمية في الآيات القرآنية أحمد عامر الدليمي ط دار النفائس، بيروت أولى ٢٠٠٢م.
- ٢٩- النبات في القرآن الكريم د. زغلول النجار، ط مكتبة الشروق الدولية مصر، ثانية ٢٠٠٥.

ثانياً: المراجع الطبية الأجنبية:

- 1- "Essential Otolaryngology: head & Neck Surgery". Keat Jin Lee:8-2003
- 2- "Developmental neurocognition: speech and face processing in the first year" Bénédicte de Boysson-Bardies 1993 :
- 3- A textbook of clinical ophthalmology" R. Pitts Crick & Peng Tee Khaw: 2003 3- :
- 4- "The eye: basic sciences in practice" John V. Forrester 2002 2- :

ثالثاً: مقالات علمية ودوريات:

- ١- أبحاث الإعجاز العلمي ذات طبيعة متخصصة وعمل جماعي، مقال نشر في مجلة الحقيقة الصادرة عن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي مكة المكرمة التابعة لرابطة العالم الإسلامي العدد الثاني عشر، ذي القعدة ١٤٣٠ هـ
- ٢- السياق عند الأصوليين، المصطلح والمفهوم د. فاطمة بوسلامة، مجلة الإحياء، العدد ٢٥ جمادى الثاني ١٤٢٨هـ.
- ٣- دلالات السياق القرآنية على وجود الثقوب السوداء، سعيد حمود اليامي، مجلة الإعجاز العلمي، العدد ٢٣، رجب ١٤٢٢هـ

رابعاً: مواقع على الشبكة العنكبوتية:

<http://www.ehd.org>

<http://www.ct4women.com>